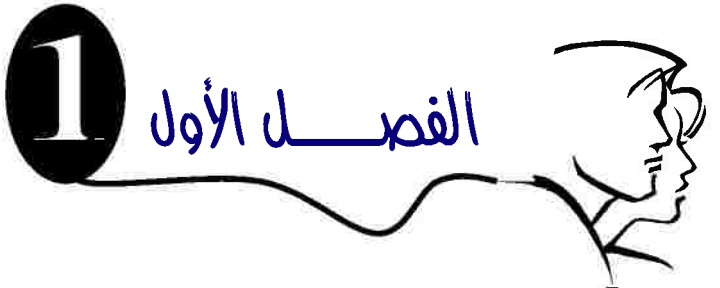

1

الفصل الأول

فهم الطبيعة النفسية للجنسين

سيكولوجية المـــــرأة

بدا لي في أول الأمر أن الكتابة عن سيكولوجية المرأة (الطبيعة النفسية لها) لا تحتاج سوى عودتي إلى أرشيف جلسات العلاج النفسي التي أتاحت لي كثيرًا رؤية هذا المخلوق اللغز بلا أقنعة أو بأقل قدر ممكن من الأقنعة، ثم أربط هذه الرؤى الميكروسكوبية التحليلية برؤيتي للمرأة في الحياة اليومية بالعين المجردة، وبذلك تكتمل الصورة، ونصل إلى كلمة السر التي تفتح لنا دهاليز هذا الكيان المحير، ولكن ما إن بدأت العمل بهذا المنهج حتى وجدتني أتوه في جزئيات وتفاصيل، يصعب الحصول منها على مفتاح أو مفاتيح للأبواب الرئيسية للشخصية الأنثوية، هنا فكرت أن أسأل صاحبات الشأن مباشرة عن كلمة السر، وعن المفاتيح؛ فوجدت ردودًا متباينة منها:

«نجوم السماء أقرب لك».

«المرأة إنسان، فإذا فهمت الإنسان فهمتها».

«المرأة لا تفهم نفسها؛ لذلك فهي عاجزة عن المساعدة في هذا الأمر».

«لو فهمت الفن تستطيع فهم المرأة».

«اقرأ الأديان، فستجد تصويرًا دقيقًا لأدق

خصائص وخلجات المرأة، وستعرف القانون الإلهي للتعامل معها».

«إذا فهمت الطبيعة؛ فستفهم المرأة».

وعندما جمعت هذه الردود النسائية اكتشفت شيئًا في غاية الأهمية، وهو أن هذا الكائن شاسع المساحات، ومتعدد الأبعاد والطبقات؛ لذلك تعجز الرؤية الميكروسكوبية التحليلية والرؤية بالعين المجردة عن إدراك كلياته، وأنه يلزم إضافة الرؤية التلسكوبية إلى المنهج الحالي لتكتمل الصورة أي: العودة إلى الطبيعة.. الأم الكبرى.. والعودة إلى الرؤية الفنية التي تسمح برؤية الشكل والخلفية، وتعلي من قيمة الوجدان.. والعودة إلى الأديان لقراءة كتالوج الصانع (الخالق)، وقراءة قانون التعامل والانتفاع والصيانة، ومع كل هذا علينا أن نحترم تواضع النتائج، ومحدودية الرؤية البشرية للإنسان عمومًا وللمرأة على وجه الخصوص.

أما وقد اكتملت أبعاد المنهج؛ فلنبدأ الآن في القراءة بلا مقدمات، وأحيانًا بلا كلمات تمهيدية أو عبارات وصلية:

إنَّ القراءة الفاحصة للحضارة المصرية القديمة تكشف أن تلك الحضارة بفنونها وآدابها وأديانها كانت أعمق إدراكًا للطبيعة، وأعمق إدراكًا للمرأة في ذات الوقت، وكانت تربط بين الاثنتين على أساس أنهما ينتميان إلى الأنوثة الولادة الراعية الحنونة من جانب، والمتقلبة والمتعددة الأشكال والألوان والحالات من جانب آخر.

«وكون الإنسان المصري كان رائدًا من رواد الزراعة جعل منه رائدًا من رواد الحضارة، وارتباط هذا بالمرأة يأتي من الجنس، ليس الجنس بالمعنى السينمائي، إنما الجنس بمعنى المبدأ المؤنث في الحياة: مبدأ الأمومة.. مبدأ احتواء البذرة الأولى، وتعهدها بالنماء شيئًا فشيئًا، حتى تصل النضج وتؤتي ثمارها كاملة، إنَّ إدراك المصري القديم للزراعة جعله يدرك أن الطبيعة عبارة عن أم كبيرة تلد ما عليها (بإذن ربها).. كل ما عليها بما فيه الإنسان والحيوان تحتويهم بذورًا صغيرة، وتتعهدهم حتى يصلوا التمام.. فهو أدرك أن هناك مبدءًا في الحياة.. هو مدين له بحياته هو والأشياء من حوله.. وأن هذا المبدأ مؤنث والمرأة تجسيدًا له؛ لأن الطبيعة إذا كانت تلد الإنسان؛ فهي تلده عن طريق المرأة.. فالمرأة هي الطبيعة في صورة إنسان.. من هنا يأتي الرباط بين المرأة والطبيعة» (حامد سعيد ١٩٩٤م: أساسيات الشخصية المصرية، الهيئة العامة للكتاب).

وكما قدَّس المصري القديم مظاهر الطبيعة – رغبةً ورهبةً – كالشمس والقمر، قدَّس أيضًا المرأة، ورفعها أحيانًا إلى مراتب الآلهة (أسطورة الإلهة إيزيس).

والمرأة راعية لجو انب الرحمة والعدل والبقاء في الوجود؛ فالرحمة من الرحم، ووظيفة الرحم هي احتواء البذرة الأولى وحمايتها وتغذيتها، ثم رعايتها بعد ذلك طول الحياة.. وفي الأسطورة المصرية القديمة كان «أوزيريس» يمثل الرجل المعلم صاحب القانون والقوة والخير، ولما كان الخير لا يترك وحده على الأرض؛ فقد جاء الشر ممثلاً في رمز الشر

«ست»، واحتال على «أوزيريس»، واحتواه داخل تابوت وأغلق عليه، وألقى به في النيل؛ فما كان من «إيزيس»، وهي راعية الحياة وحاميتها، والمجاهدة الأولى في سبيل العمل على أن يكون الحق والنظام والخير أمرًا واقعًا إلا أن تسعى حتى تحصل على جسده في التابوت.. ولكن «ست» يستعيده، وفي هذا المرة يقطعه إربًا، ويبعثره في أنحاء الوادي، ولم تقبل «إيزيس» ثانيًا هذه الأمر الواقع، وجمعت الأشلاء وحملت منه الأمل.. الطفل «حوريس» الذي أصبح يمثل كل حاكم على هذه الأرض.. كل صاحب أمر في هذا المكان مفروض أنه يحكم باسم «حوريس»؛ لكي يقيم القانون والخير والحق مرة أخرى على الأرض.

و«كليوباترا» منحت «أنطونيو» الحب والرعاية والحماية، كذلك فعلت شجرة الدر مع الملك الصالح.. وهكذا نرى المرأة ترعى الحياة، وتلملم الأشلاء، وتحمي بذور الحبِّ والرحمة والحق والعدل.

«ويخيل لنا أن الفن المصري كان نتيجة التزام المصري بعالم النبات وتفتحه له، وتفتحه لمبدأ الأمومة في الطبيعة أو الأنوثة في الطبيعة.. والأنوثة أعم من الأمومة، الأمر الذي جعل منجزاته تبدو وكأنها من خلق الطبيعة.. الأم نفسها لا افتعال فيها إطلاقًا، بل فيها شيء من العمق والبساطة، وصدق التكوين، ولا محدودية الإيحاء الذي تقدر عليه الطبيعة.. وإن كلاً من المرأة والطبيعة في ذلك الفن لم تؤخذ غلابًا، ولكن حبًّا وودًّا وتواصلاً وتوحدًا وامتزاجًا؛ فأعطت وساندت وساعدت وأسعدت وكملت وشفت، وأتاحت حين شفت بصيرة من معنى الحياة أرق من النسيم، وأدق من الكلام» (حامد سعيد ١٩٩٤م:

أساسيات الشخصية المصرية).

وهذا المأخذ الرفيق الرقيق الودود المحب لكلٍّ من المرأة والطبيعة يتناقض مع المواقف المعاصرة التي تتحدث عن قهر الطبيعة وتحديها، والسيطرة عليها، وامتصاص ثرواتها، واستغلال قوانينها، وركوب برها وبحرها وجوها قسرًا وكرهًا، وكذلك المرأة.. وكنتيجة لتشوه إدراك الإنسان للطبيعة (الأم) تشوه إدراكه للمرأة، وأصبح يراها لغزًا عصيًا على الفهم، ولذلك قال بعضهم في يأس: مهما أوتيت من قدرة على فهم أفكار ومشاعر البشر، وبالتالي التنبؤ بسلوكياتهم؛ فإنك لا تستطيع أن تدعي النجاح في ذلك مع المرأة، وإذا حدث ونجحت في فهمها فهمًا كاملاً؛ فهناك أحد احتمالين:

أولاً: أن تكون هذه المرأة مسترجلة.

ثانيًا: أن يكون ذلك الفهم قد حدث صدفةً، ولذلك لا يقاس عليها، ولا يمكن تعميمها.

ويبدو أن المرأة تسعد بهذا الغموض؛ لأنها اكتشفت أنه يزيدها سحرًا، ويزيد انشغال الرجل بها، والدليل على ذلك تلك الإبداعات الأدبية والفنية الهائلة والجميلة التي تجسد الحيرة أمام هذا المخلوق المحوري شديد التقلب والتناقض بالدرجة التي يصعب معها التقاط صورة حقيقية له تعبِّر عنه تعبيرًا كاملاً.

وحين كانت تشتد حيرة الرجل وارتباكه أمام سلوك المرأة ومشاعرها كان يصفها بأنها مثل الحية في نعومتها وقسوتها والتوائها

وقدرتها على النفاذ، وهذا الوصف له جذوره الدينية التي نلمحها في هذا النص التوراتي في الإصحاح الثالث من سفر التكوين:

«وكانت الحية أحيل جميع الحيوانات البرية... فقالت للمرأة: أحقًّا قال الله: لا تأكلا من شجرة الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة تأكل، وأما ثمرة الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منها، ولا تمساه لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا.. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر.. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، وأخذت من ثمرها، وأكلت وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل، وانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين، وصنعا لأنفسهما مآزر، وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم: وقال له: أين أنت؟ فقال له: سمعت صوتك في الجنة، فخشيت لأني عريان واختبأت، فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي أعطتني من الشجرة، فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين، وترابًا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، وهو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه، وقال للمرأة: تكثيرًا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادًا، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك،

وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها – ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكًا وحسكًا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك.. تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها؛ لأنك تراب، وإلى التراب تعود».

وسواء آمن البعض بالنص التوراتي كتراث ديني أو نظر إليه البعض الأخر كتراث إنساني، فإننا نستطيع استخلاص المفاهيم التالية من عبارته وإيحاءاته:

١- ثمة علاقة ترابط بين المرأة والحية نتج عنها حوار بين الاثنين ثم اتفاق ثم خطة تم تنفيذها.

٢- كانت المرأة قابلة للاستهواء من الحية، وفي نفس الوقت قادرة على استهواء الرجل (آدم).

٣- لدى المرأة – والرجل أيضًا – جوع للخلود والرؤية والوعي جعلتهما يتورطان في تجاوز الحدود (يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر).

٤- ولع المرأة بالجمال والزخرف، (وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر).

٥- المرأة قادرة على إغواء الرجل، (وأعطت رجلها أيضًا معها

فأكل)، (المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة).

٦- كثرة معاناة المرأة في الحمل والولادة (تكثيرًا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادًا).

٧- المرأة مشدودة إلى الرجل ومسودة به، (وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك).

٨- الرجل يسمع لقول المرأة، ويعاني من ذلك؛ (لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها – ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك).

وإذا كانت هذه هي صورة المرأة في النص التوراتي؛ فإن النصوص القرآنية التي تناولت هذه القصة لم تشر من قريب أو بعيد إلى ذلك التحالف – غير المقدس – بين حواء والحية، (لاحظ الاشتراك في البناء اللفظي)، حيث وردت القصة في ثلاث مواضع في القرآن الكريم:

ففي سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٥، ٣٦].

وفي سورة الأعراف: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ

هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٩، ٢٠].

وفي سورة طه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى ۞ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١].

ففي سورتي البقرة والأعراف كان الزلل والوسوسة لآدم وحواء معًا دون إشارة إلى سبق أحدهما، في حين كانت وسوسة الشيطان موجهة لآدم في سورة طه ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾، ثم اشترك هو وحواء في الفعل ﴿فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾، وانفرد آدم بالمسئولية، وتلقى اللوم ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾.

ومع هذا ورد في تفسير الطبري، وهو أحد التفاسير المعتبرة للقرآن الكريم، نقلاً بالإسناد عن وهب بن منبه قال: «.. لما أسكن الله آدم عليه السلام وزوجته الجنة، ونهاهما عن الشجرة، أراد إبليس أن يستذلهما، فدخل في جوف الحية.. فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم عليه السلام وزوجته، فجاء به إلى حواء، فقال: انظري إلى هذه الشجرة: ما أطيب طعمها، وأحسن لونها، فأخذت حواء فأكلت منها، ثم ذهبت إلى آدم عليه السلام فقالت: انظر إلى هذه الشجرة: ما أطيب ريحها وطعمها وأحسن لونها! فأكل منها آدم عليه السلام، فبدت لهما سوآتهما».

وخطورة هذه القصة أنها جعلت حواء أحد أضلاع مثلث بقية أضلاعه الحية وإبليس، ومرجعيه هذه القصة – كما هو ظاهر – قصة

التوراة التي حفظها وهب بن منبه، ورواها للمسلمين بعد دخوله في الإسلام، ولذلك تعتبر من الإسرائيليات.

وإذا انتقلنا من التراث الأدبي والفني والديني (النظرة التلسكوبية) إلى التراث العلمي (النظرة الميكروسكوبية)؛ فإن الصورة تزداد وضوحًا شيئًا فشيئًا لدرجة أننا نستطيع القول بأنه من خلال المنهج العلمي البسيط نملك كلمة السر للدخول إلى عالم المرأة الغامض المجهول، ونفكُّ طلاسم هذا اللغز، وسوف يتم هذا من خلال عدة مفاتيح بسيطة نذكرها فيما يلي:

أ- التكشف البيولوجي مقابل التستر النفسي:

لا يمكن فهم المرأة نفسيًا إلا من خلال فهمها بيولوجيًا؛ فعلى الرغم من غموض المرأة نفسيًا، فهي شديدة الوضوح بيولوجيًا، بمعنى أن التكوين البيولوجي فاضح لها، مهما حاولت إخفاءه، فهي أضعف عضليًا من الرجل على وجه العموم، وفي حالة بلوغها يسيل دم الدورة الشهرية معلنًا بدء الحدث في وضوح، ويتكرر ذلك الإعلان مرة كل شهر مسبوق ومصحوب ومتبوع بتغيرات جسدية ونفسية لا يمكن إخفاؤها، والتركيب الجسماني للمرأة بعد البلوغ يعلن عن نفسه بشكل واضح من خلال «بروزات» واضحة في أماكن مختلفة من الجسم، والحمل يكون ظاهرًا بارزًا بعد الشهر الرابع، والولادة مصحوبة بألوان شتى من الألم والصراخ والنزف، والأطفال كائنات ظاهرة وملتصقة بالأم تعلن أمومتها في صراحة ووضوح، وحين تصل المرأة إلى سن

الشيخوخة أو قريب منها تظهر الترهلات والتجاعيد بشكل أكثر وضوحًا مما يظهر في الرجل.

وكردِّ فعل طبيعي لهذا الفضح البيولوجي تميل المرأة – السوية – إلى التخفي والتستر، وما الخجل الفطري لدى المرأة، إلا رغبة حقيقية في الابتعاد عن العيون الفاحصة المتأملة لتلك المظاهر البيولوجية الكاشفة، ومن هنا يبدو حجاب المرأة ملبيًا لهذا الاحتياج الفطري النفسي للتستر، أما محاولات التعري لدى النساء؛ فإنها غالبًا تتم بإيعاز من الرجل، ورغبة في إرضائه أو جذب انتباهه، أي أن التعري ليس صفة أصلية في المرأة السوية.

وربما تكون صفة التستر قناعًا يخفي حقيقة المرأة البيولوجية ومشاعرها عن العيون، وخاصةً إذا بالغت المرأة في استخدامها، وربما يكون هذا هو أحد أهم أسباب غموض المرأة وكونها لغزًا.

ويتبع صفة التستر صفة أخرى تبدو مناقضة لها، ولكنها في الحقيقة مكملة إياها، وهذه الصفة هي «التظاهر»؛ فالمرأة لا تكتفي بالتستر، ولكنها تريد أن تزيد ظاهرها وتجمله؛ ليتلهى به كل ناظر إليها، فلا يستطيع التلصص إلى دخائلها بسهولة، ومن هنا نفهم ولع المرأة الفطري بأدوات الزينة والتجميل واستعمال الروائح العطرية.

ولا يتوقف التظاهر عند المستوى الجسدي أو المادي فقط، وإنما يمتد إلى المستوى النفسي؛ فيتمثل في ميل المرأة إلى الكذب المجمل بمعنى أنها تميل إلى إعطاء صورة أفضل عن نفسها تخفي بها أشياءً، وتظهر أشياءً،

وتبالغ في أشياء.. وهي إنْ بالغت في عمليتي التستر، والتظاهر تصبح خادعة ومخدوعة في نفس الوقت؛ فهي تكون قادرةً على خداع الرجل بظاهرها (المخالف كثيرًا لباطنها)، وتكون أيضًا مخدوعةً؛ لأنها بمبالغتها في لبس القناع تصبح بعيدة عن مشاعرها الحقيقية، وعن ذاتها الأصلية، فتصدق ما صنعته من وسائل التمويه، وهي إذ تفعل هذا تكون أكثر هشاشة في تكوينها من الرجل؛ لأنها تكون (كما قالت أحد الفتيات في جلسة علاج نفسي) أشبه «بماسة في زجاجة».

والمرأة لا تحتاج فقط إلى ستر تكوينها البيولوجي والتظاهر بخلافه، وإنما تحتاج ذلك أيضًا في مواجهة مشاعرها وعواطفها، فقد خلقت بطبيعة جياشة لتكون مناسبة لمواكبة حاجات الأب والزوج والأبناء، وهذه الطبيعة تتسم بالسيولة العاطفية، والتي تتبدى في التغير السريع في المشاعر، وفي حرارة هذه المشاعر مقارنة بالرجل.. وهذه السيولة العاطفية يكمن خلفها تركيبات عصبية وإفرازات هرمونية، تجعلها قوة دافقة تخشى المرأة خطرها؛ لذلك تحاول جاهدة إخفاء جزء كبير من مشاعرها، وربما أظهرت مشاعرها تبدو في ظاهرها عكس مشاعرها الحقيقية؛ فهي تحاول إخفاء حبها حتى لا تتورط في علاقات حرجة، وتحاول إخفاء كرهها حتى لا تتعرض لغضب الرجل الذي تحتاج إليه، وتخشى بطشه، وهي التي خلقت لتتمنع، وهي راغبة (يتمنعن وهن الرغبات)؛ فإحساسها بضعفها وإحساسها بأنوثتها يجعلها تفضل موقف الانتظار، فلا تسمح لرغباتها بالظهور الفج أو التعبير الصريح كما يفعل الرجل.

ب- التبعية:

مهما تظاهرت المرأة بالقوة، ومهما تزعمت الحركات النسائية؛ فهي تشعر في أعماق أعماقها بأن الرجل يعلوها، وأنها تابعة له متعلقة في رقبته، والحركات النسائية نفسها تعتبر دليل على ذلك؛ لأن المرأة لو شعرت في قرارة نفسها بالمساواة الحقيقية بالرجل، لما شغلت نفسها بالإلحاح ليل نهار بأنها «مثل الرجل».

ويبدو أن هذه حقيقة لا تستطيع المداهنات الاجتماعية أو الإنسانية تجاهلها على أي مستوى من المستويات؛ فقد ورد في التوراة (الإصحاح الثالث من سفر التكوين): «وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك».

وجاء في القرآن: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وجاء أيضًا: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

والواقع يؤكد هذه الحقيقة في كثير من النواحي، فمما لا شكَّ فيه أن الرجل أقوى عضليًا من المرأة، (والاستثناءات النادرة لا تنفي هذه القاعدة بل تؤكدها)، والرجل متفوق في أغلب المجالات على مرِّ العصور، (وهذا لا يمنع تفوق بعض النساء على كثير من الرجال على الندرة التي لا تغير القاعدة)، والطريف أن الرجل ثبت تفوقه على المرأة في المجالات التي كان يعتقد أن للمرأة سبق معرفة بها، وسبق تخصص

فيها؛ فالمرأة مثلاً متفرغة للطهي منذ صغرها، وتمارسه طيلة حياتها، ومع هذا نجد الرجل الذي يمارس الطهي لفترة وجيزة يتفوق عليها، ونفاجئ بأن أعظم الطهاة في العالم هم من الرجال، وقس على ذلك أن أعظم مصممي الأزياء النسائية هم من الرجال، وأعظم مصففي الشعر، وأعظم منتجي أدوات الزينة التي هي من أقرب خصوصيات المرأة هم أيضًا من الرجال.

إذن فنحن أمام واقع تؤكده الشواهد اليومية، ويؤكده التركيب البيولوجي، وتؤكده النصوص الدينية، وهذا الواقع ليس عيبًا في التكوين، وليس انتقاصًا من المرأة، وليس مبررًا لاستبعادها وقهرها، وإنما هو احتياج وظيفي لكي تكتمل مسيرة الحياة... (مع الاعتذار للزعيمات).

والمرأة السوية تعرف بداهةً أنها متعلقة برقبة الرجل طوال مسيرة حياتها، فقد عاشت طفولتها وصباها متعلقة برقبة أبيها أو أخيها، وعاشت شبابها ونضجها متعلقة برقبة زوجها، وعاشت بقية حياتها متعلقة برقبة ابنها... وهكذا تشعر المرأة بمحورية دور الرجل سواء أحبته أم كرهته.

وكردٍّ فعل نفسي لهذا الشعور العميق بالتحتية والتبعية نجد أن المرأة تميل إلى الدهاء والحيلة؛ لتتفادى بطش الرجل، وهي تلجأ للإغراء بأن تتزين وتتعرض للرجل، وتنتظر سعيه إليها؛ فإن لم يكن ذلك كافيًا

لجأت إلى الإغواء بالتنبيه والحيلة والدلال؛ فهي تسعى إلى تحريك إرادة الرجل نحو الفعل، بمعنى أن المرأة تملك الإرادة المحركة في حين يملك الرجل الإرادة الفاعلة.. والمرأة بوعيها الفطري بقوة الرجل تسعى لموازنة ذلك بجمال الأنوثة، وهي تستطيع أن تصل من خلال جمال الأنوثة إلى قهر قوة الرجولة، وبذلك تشعر أنها حققت مرادها وأكثر.

وهذا النموذج الطبيعي يؤدي إلى بقاء النوع، وتحسين صفاته حيث تسعى المرأة الجميلة إلى الاستسلام للرجل القوي، فينتج نسلاً يجمع بين القوة والجمال، وعلى العكس؛ فالمرأة المسترجلة تبحث عن رجل ضعيف لتعتليه، فينتج جيلاً ضعيفًا مشوهًا، وهي لن تكتفي بانتقائها للرجل الضعيف، بل ستواصل قهرها لأبنائها من الذكور فتزيدهم ضعفًا.

وحين تفشل المرأة في إغراء الرجل أو إغوائه، أو حين ترفض حتمية التحتية والتبعية للرجل بسبب استرجالها مبالغة الرجل في الاستعلاء عليها؛ فإنها تلجأ للعناد والمخالفة والعصيان، فهي بالعناد تثبت وجودها الذي يريد الرجل بحماقته الإطاحة به، وهي بالعناد ترفض ضعفها الذي استغله الرجل لإذلالها بدلاً من توظيفه لخدمة الحياة.

والمرأة – مثل أي تابع – مولعةٌ بالممنوعات، وبما هو «ليس كذلك»؛ فهي تبحث عن البدليل لعلها تجد فيه الخلاص من التبعية للرجل، ولعل إقدامها على الأكل من الشجرة المحرمة يرمز لهذه الصفة الأصلية فيها.

ويعبر الشاعر الجاهلي طفيل الغنوي عن هذه الصفة الأنثوية بقوله:

إِنَّ النِّساءَ كَأَشجارٍ نَبَتنَ مَعًا مِنها المِرارُ وَبَعضُ المُرِّ مَأكولُ
إِنَّ النِّساءَ مَتى يَنهَينَ عَن خُلُقٍ فَإِنَّهُ واجِبٌ لا بُدَّ مَفعولُ

فهي مولعة بالممنوع بحثًا عن الخلاص من التبعية، وهي مولعة بالممنوع كجزء من عنادها، ومولعة بالممنوع؛ لأنها تشعر أن القوانين وضعها الرجال، ومولعة بالممنوع لإحساسها بأن الرجل هو المسئول عنها وعن شذوذها، وعليه أن يلملمها إذا هي تبعثرت، ويعيدها إذا انحرفت.. وهذه الصفة رغم ظاهر خطورتها إلا أنها تفتح الطريق أمامها وأمام الرجل إلى ما هو «ليس كذلك»، وتمهِّد الطريق لرؤى إبداعية جديدة، وتنبِّه الرجل إلى مصادر الجمال والمتعة، وتفتح أمام عينيه آفاقًا من الرؤية والمخاطرة، وبذلك تكون المرأة ملهمة للإبداع، ويكون الرجل منتجًا له.. وهذا ملحوظ على مرِّ التاريخ حيث كانت المرأة أقل إبداعًا من الرجل حتى في المرثيات التي هي أقرب إلى خصائص المرأة، وحتى الرقص تكون فيه المرأة منفذة لا مبتكرة (أشهر مصممي الرقصات من الرجال).

والمرأة حين تفشل في إغراء الرجل أو إغوائه، وحين تفشل في مقاومة قوته بجمالها، وحين تفشل في تحريك إرادته ليتجه نحوها، وحين تفشل في عناده، وحين تفشل في اجتياز الخطوط الحمراء، والدخول في المناطق الممنوعة، حين تفشل كل هذه الوسائل لا تجد أمامها إلا الشكوى والألم والتمارض، ويحدث هذا حين يهمل الرجل المرأة أو حين تفقد المرأة جاذبيتها أثناء الحمل أو بعد الولادة أو حين بلوغ سن

اليأس، وهنا تكثر الشكوى الجسدية، وتكثر الآلام، وتكثر علامات الاستغاثة، ونداءات القرب، وطلب الاعتمادية السلبية، لعل هذه الأشياء تكون شفيعة لها عند الرجل، فيرق قلبه، ويحتويها مرة أخرى (سواء كان أبًا لها أو زوجًا أو ابنًا).

جـ- المرأة ونوازع الحياة:

وإذا كانت صفة التبعية قد أغضبت بعض النساء؛ فإن الصفة الحالية حتمًا ستسعدهن أيما إسعاد؛ فالمرأة تعلم في قرارة نفسها أنها الوعاء الذي يحافظ على بقاء النوع، فهي منتجة للحياة بإذن ربها، وراعية لها، لذلك تشعر من هذه الناحية أنها أقوى من الرجل، والمرأة هي وعاء اللذة الجنسية التي أعطاها المحللون النفسيون مكانة محورية في توجيه وتحريك السلوك، والمرأة هي الوعاء العاطفي الذي يشعر الرجل معه بالسكن والراحة، والمرأة تذكي روح التنافس بين الرجال طلبًا للقوة التي توصل إلى قلبها.. إذن فالمرأة وعاء الحياة، ووعاء البقاء، ووعاء اللذة، ووعاء العاطفة والسكن، ووعاء القوة، أي أن المرأة تضرب بجذورها في أعرق نوازع الحياة.

د- الوفاء للطبيعة:

هذه أحد الصفات المحيرة جدًّا للرجل؛ فهو يريد المرأة وفيةً له دائمًا، والمرأة السوية تفعل ذلك غالبًا خاصةً إذا كان وفاؤها للرجل يتماشى مع وفائها للطبيعة، أما إذا تعارض الاثنان؛ فإنها تختار (شعوريًا أو لاشعوريًا) الوفاء للطبيعة.. وهذه فطرة أصلية في المرأة للمحافظة

على القوة والجمال في النوع البشري؛ فالمرأة أكثر ميلاً نحو الأقوى (بكلِّ معاني القوة)، والأجمل (بكلِّ معاني الجمال)، وهي مدفوعة لذلك بالفطرة، ولو كانت غير ذلك فقبلت الأضعف (بكلِّ معاني الضعف)، والأقبح (بكلِّ معاني القبح)؛ لتدهورت السلالات البشرية.

وهذه الصفة رغم انتهازيتها الظاهرية – على الأقل في نظر الرجل – إلا أنها تدفعه ليكتسب مصادر القوة (الصحة والمال والنفوذ... إلخ)، ويكتسب مصادر الجمال (المظهر والأخلاق والسلوك... إلخ)، وهذا يصبُّ في النهاية في مصلحة الجنس البشري ككلٍّ، حتى إن كان على حساب الضعفاء من الرجال.

وهناك استثناءات تقبل فيها المرأة الاستمرارية مع الأضعف أو الأقبح، ويكون ذلك بدافع الشفقة أو الأمومة أو أي دوافع فطرية أخرى، أو تكون مضطرة لذلك، وهذه الاستثناءات لا تنفي القاعدة الفطرية العامة، والمرأة حين تقاوم فطرتها مضطرة؛ فإن ذلك يظهر عليها في صورة اضطرابات نفسية وجسمانية متعددة، كاحتجاج على مخالفة الدافع الفطري لديها، وهو الوفاء للطبيعة التي تدعم بقاء الأقوى والأجمل.

هـ- الجمع بين النقيضين:

لا يفهم المرأة من لا يفهم هذه الصفة الفطرية فيها؛ فهي تجمع بين اللذة والألم، بحيث لا تستطيع التفرقة بينهما في لحظة بعينها، ويتجسد

ذلك في حالة اللقاء الجنسي الذي يموج بمشاعر غاية في التناقض لدى المرأة، ويتجسد أيضًا في حالة الحمل والولادة والرضاعة وتربية الأولاد؛ فعلى الرغم من شكوى الأم من آلام الحمل والولادة والرضاعة والتربية إلا أنها في ذات الوقت تشعر بلذة عارمة أثناء هذه المراحل.. ويمتزج الحب بالكره لدى المرأة؛ فهي تكره شقاوة الأبناء، وتحبهم في ذات الوقت، وتحقد على الزوج، ولا تطيق ابتعاده عنها، وتغضب من الأب، وتدعو له بطول العمر.. وهي تجمع بين الضحك والبكاء ويساعدها تكوينها العاطفي وسيولة مشاعرها على ذلك، ويساعدها التكوين البيولوجي، فتسعفها الغدد الدمعية بما تحتاجه من دموع، وبمنتهى السرعة والسهولة.

و- التقلب:

وهو صفة بيولوجية ونفسية أصيلة في المرأة؛ فالمرأة منذ بلوغها لا تستقر على حال، فأحداث الدورة الشهرية، وما يسبقها، وما يصاحبها، وما يتبعها من تغيرات- تجعلها تتقلب في حالات انفعالية متباينة، والحمل وما يواكبه من تغيرات جسدية وهرمونية ونفسية يجعلها بين الشوق والرفض، وبين الرجاء والخوف طيلة شهور الحمل، ثم يتبع ذلك زلزال الولادة الذي ينتج عنه «تعتعة» ما تبقى من استقرار لدى المرأة.. ومع قدوم الطفل تصبح الأم مسئولة عن كائن كثير الاحتياجات، شديد التقلب، ولا بدَّ أن تكون لديها قابلية لمواكبة كل هذا وغيره كثير في حياتها.. ومن لا يفهم صفة التقلب لدى المرأة يحار كثيرًا أمام تغير أحوالها ومشاعرها وقراراتها وسلوكياتها.

وبالتأكيد فإن الصفات التي ذكرنا تمثل غالبية النساء، وتبقى هناك استثناءات تخرج عن هذه القواعد، ولكن الاستثناءات لا تنفي، بل تؤكد القاعدة.

وأخيرًا نقول:

هذه هي المرأة اللغز، شديدة الغموض، شديدة الوضوح، بالغة الضعف، بالغة القوة؛ فاستوصوا بالنساء خيرًا.

* * *

سيكولوجية الرجـــــل

هل هناك صفات مشتركة بين جنس الرجال تميزهم، كما أن هناك صفات مشتركة بين جنس النساء تميزهن؟ أم أن كلَّ رجل هو بمثابة حالة خاصة له صفاته المميزة له وحده، وبالتالي يصبح التعميم خاطئًا؟ هل هناك مفاتيح لفهم الرجل تساعد المرأة حين تتعامل معه على الدخول لعالمه، وفك أسراره، وفهم مواقفه؟!

هل الرجل إنسان، والمرأة أيضًا إنسانة، ولا توجد فروق قائمة على النوع، وإنما الفروق قائمة على طبيعة كل إنسان أو إنسانة، وعلى البيئة المحيطة به أو بها، أو كما يقولون: إن الإنسان هو الوراثة مضروبة في البيئة؟

من متابعة الدراسات والأبحاث والملاحظات، وتاريخ الرجل عبر العصور نجد أن هناك سمات مشتركة، ومفاتيح محددة، تميِّز جنس الرجل، وتسهل فهم طريقة تفكيرهم وسلوكهم.. ويبدو أن هذه السمات المشتركة لها جذور بيولوجية (التركيب التشريحي، والوظائف الفسيولوجية، وخاصة نشاط الغدد الصماء)، وجذور تتصل بدور الرجل في المجتمعات المختلفة، فمما لا شكَّ فيه أن التركيبة الجسمانية العضلية للرجل، وما يحويه جسده من هرمونات ذكورة، وما قام به من

أدوار عبر التاريخ، مثل: العمل الشاق، وحماية الأسرة، والقتال، وممارسة أعمال الفكر والإدارة، وقيادة أسرته ورعايتها.. كلُّ هذا جعله يكتسب صفات مميزة، يمكن الحديث عنها كسمات رجولية تميزه عن عالم النساء.. وهذا لا ينفي وجود فروق فردية بين الرجال (كما هي بين النساء) تستدعي الانتباه.

والآن نحاول استعراض أهم السمات العامة، ومفاتيح شخصية الرجل:

١- التميز الذكوري:

في بداية التاريخ الإنساني كانت الآلهة غالبًا تأخذ الشكل الأنثوي في التماثيل التي كانوا يصنعونها، وكان هذا التقديس للأنثى قائمًا على قدرتها على الإنجاب، وإمداد الحياة بأجيال جديدة، ولكن مع الزمن اكتشف الرجل أن الأنثى لا تستطيع الإنجاب بدونه، إضافةً إلى أنه هو الأقدر على دفع الحيوانات والوحوش عنها وعن أسرته، وهو الأقدر على قتال الأعداء؛ لذلك بدأ التحول تدريجيًا، ففي بعض المراحل التاريخية نجد أن تمثال الرجل يساوي تقريبًا تمثال المرأة، ثم تحوَّل الأمر بعد ذلك ليعلو تمثال الرجل على تمثال المرأة، حيث اكتشف الرجل أدواره المتعددة، وقدرته على السيطرة والتحكم، وتغيير الأحداث، في حين انشغلت المرأة بأمور البيت وتربية الأبناء.

ومن هذه المرحلة بدأت فكرة التميز الذكوري، وترسخت مع الزمن، وكان يسعد بها الرجل السوي، وتسعد بها المرأة السوية، والتي

تعرف أنها تمتلك هي الأخرى في المقابل تميزًا أنثويًا عن نوع آخر يناسب تكوينها ودورها.. ولكن الرجل في بعض المراحل التاريخية وخاصةً في فترات الاضمحلال الحضاري راح يبالغ في «تميزه الذكوري»، حتى وصل إلى حالة من «الاستعلاء الذكوري»، وفي المقابل حاول وأد المرأة نفسيًا واجتماعيًا، وأحيانًا جسديًا؛ فحطَّ من شأنها، واعتبرها مخلوقًا «من الدرجة الثانية»، وأنها مخلوق «مساعد» جاء لخدمته ومتعته، وأنها مخلوق «تابع» له.. وهذا التصور العنصري المخالف لقواعد العدل والأخلاق، والمخالف لتعاليم السماء في الدين الصحيح دفع المرأة لأن تهب دفاعًا عن كيانها ضد محاولات السحق من الرجل، ومن هنا نشأت حركات التحرر في البداية؛ لتعيد للمرأة كرامتها وحقوقها من أيدي الرجال المستبدين، ولكن بعض هذه الحركات بالغت في حركتها ومطالبها، وسعت عن قصد أو عن غير قصد لأن تجعل المرأة رجلاً ظنًّا منها أن هذه هي المساواة، وقد أفقد هذا التوجه المرأة تميزها الأنثوي الذي هو سر وجودها، وأصبح الأمر معركة وجود وندية مع الرجل، وخسر الاثنان (الرجل والمرأة) تميزهما الذي منحهما الله إياه، ليقوم كلٌّ بدوره، وبما أن المرأة والرجل مخلوقان لله سبحانه وتعالى، فلا نتصور أن يتحيز الخالق لأحد مخلوقاته ضد الآخر، ولكنها الأدوار والمهام والواجبات، والعدالة في توزيع التميز في جوانب مختلفة لكي تعمر الحياة.

والرجل يكمن في داخله الشعور بالتميز الذكوري، وهذا الشعور يجعله حريصًا على القيام بدور القيادة والرعاية للمرأة وللأسرة، وينبني

على هذا الشعور مفهوم القوامة، وهو مفهوم عميق في نفس الرجل، وجاءت الأديان السماوية تؤكده كشيء فطري لازم للحياة، فما من مشروع أو مؤسسة إلا وتحتاج لقيادة حكيمة وخبيرة وناضجة، ولما كانت مؤسسة الأسرة هي أهم المؤسسات الاجتماعية عبر التاريخ الإنسانية كان لا بدَّ من الاهتمام بقيادتها، وقد ثبت عمليًا أن الرجل (في معظم الأحيان) جدير بهذه القيادة بما تميز به من صفات القوة الجسدية، والقدرة على العمل الشاق، وكسب المال، ورعاية الأسرة، والتأني في اتخاذ القرارات.

٢- القوامة:

هي روح الرجولة، وإذا حاولت المرأة انتزاعها (غيرةً أو تنافسًا)؛ فإنها في الحقيقة تنتزع رجولة الرجل، ولا تجد فيه بعد ذلك ما يستحق الإعجاب أو الاهتمام، بل تجده إنسانًا ضعيفًا خاويًا، لا يستحق لقب فارس أحلامها، ولا يستحق التربع على عرش قلبها، والمرأة السوية لا تجد مشكلة في التعامل مع قوامة الرجل السوي الذي يتميز فعلاً بصفات رجولية تؤهله لتلك القوامة؛ لأن القوامة التي وردت في الآية القرآنية الكريمة مشروطة بهذا التميز، يقول تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء:٣٤].

فلكي يستحق الرجل القوامة عن حقٍّ في نظر المرأة، يجب أن يكون ذا فضل، وذا قدرة على الكسب والإنفاق، أما إذا اختلت شخصيته، فكان ضعيف الصفات، محدود القدرات، ويعيش عالة على كسب

زوجته؛ فإن قوامته تهتز، وربما تنتقل لأيدي المرأة الأقوى بحكم الأمر الواقع وقوانين الحياة.

والقوامة ليست استعلاءً أو استبدادًا وتحكمًا أو تسلطًا أو إلغاءً للمرأة، كما يفهم بعض الرجال، وإنما هي رعاية ومسئولية، وقيادة منطقية عادلة، واحترام لإرادة المرأة وكرامتها، كشريك حياة ورفيق طريق، والمرأة السوية تشتاق من أعماقها لتلك القوامة الرشيدة، والتي تعني لها قدرة رجلها على رعايتها واحتوائها وحمايتها، وتلبية احتياجاتها واحتضانها، كي تتفرغ هي لرعاية واحتواء وحماية واحتضان وتلبية احتياجات أطفالها.. والمرأة التي تنتزع القوامة من زوجها تصبح في غاية التعاسة (في حالة كونها سوية، وليست مسترجلة)؛ لأنها تكتشف أنه فقدن رجولته، وبالتالي تفقد هي أنوثتها.

٣- تعددية الرجل (مقابل أحادية المرأة):

والتعددية في الرجل مرتبطة بتكوين بيولوجي ونفسي واجتماعي؛ فالرجل لديه ميل للارتباط العاطفي، وربما الجنسي بأكثر من المرأة، وهذا لا يعني في كل الأحوال أنه سيستجيب لهذا الميل، فالرجل الناضج الرزين يضع أمورًا كثيرة في الاعتبار قبل الاستجابة لإشباع حاجاته البيولوجية والنفسية، وربما يكمن خلف هذه الطبيعة التعددية طول سنوات قدرة الرجل العاطفية والجنسية مقارنةً بالمرأة حيث لا يوجد سن يأس للرجل، ولا يوجد وقت يتوقف فيه إفراز هرمونات الذكورة، ولا يوجد وقت تتوقف فيه قدرته على الحبِّ والجنس، وإنْ كانت هذه

الوظائف تضعف تدريجيًا مع السن، ولكنها تبقى لمراحل متقدمة جدًّا من عمره، وهذا عكس المرأة التي ترتبط وظيفة الحبِّ والجنس لديها بالحمل والولادة والاندماج العميق في تربية أطفالها، ثم انقطاع الدورة في سن معين (مبكر نسبيًا)، وهبوط هرمونات الأنوثة في هذا السن، مع تغيرات بيولوجية ملحوظة.. وهذا الوقف يجعل المرأة – السوية – أكثر ميلاً لأحادية العلاقة كي تضمن استقرارًا تتمكن فيه من رعاية أطفالها، إضافةً إلى تقلبات حياتها البيولوجية، والتي تستدعي وجود راعٍ ثابت ومستقر، يواكب مراحل حياتها، ويتحملها حين تفقد بعض وظائفها.

وربما يقول قائل: وما تفسيرك للبغاء في النساء، وهو سلوك جنسي تعددي، وأيضًا الخائنات من الزوجات؟

والردُّ على ذلك هو: أننا نتكلم عن القواعد في المرأة السوية، أما المرأة الخائنة؛ فلكلِّ واحدة منهن تركيبتها النفسية التي تجعلها في عداد الاستثناءات التي تثبت القاعدة ولا تنفيها.

وربما لا يعجب هذا الكلام بعض الزعيمات النسائيات، ونحن نؤكد هنا أننا نتكلم بشكل علمي موضوعي قائم على الدراسات والملاحظات بعيدًا عن المداهنات السياسية أو الاجتماعية.

٤- الرجل طفل كبير:

هذا المفهوم كنت أعتقد أنه من قبيل الكلمات المرسلة، والتي يستخدمها الناس بلا وعي في مزاحهم، ولكنني وجدت إلحاحًا على معناه في أكثر من دراسة واستطلاع رأي للرجال والنساء، ويبدو أن

هناك شبه اتفاق على هذه الصفة في الرجل؛ فعلى الرغم من تميزه الذكوري، واستحقاقه (غالبًا، وليس دائمًا) للقوامة، ورغبته في الاقتران بأكثر من امرأة، إلا أنه يحمل بداخله قلب طفل، يهفو إلى من تدلله وتداعبه، بشرط ألا تصارحه بأنه طفل؛ لأنها لو صارحته، فكأنها تكشف عورته، ولذلك تقول إحدى النساء بأن من تستطيع أن تتعامل مع الأطفال بنجاح غالبًا ما تنجح في التعامل مع الرجل.

والمرأة الذكية هي القادرة على القيام بأدوار متعددة في حياة الرجل؛ فهي أحيانًا أم ترعى طفولته الكامنة، وأحيانًا أنثى توقظن فيه رجولته، وأحيانًا صديقة تشاركه همومه وأفكاره وطموحاته، وأحيانًا ابنة تستثير فيه مشاعر أبوته.. وهكذا، وكلما تعددت وتغيرت أدوار المرأة في مرونة وتجدد؛ فإنها تسعد زوجها كأي طفل يسأم لعبة بسرعة، ويريد تجديدًا دائمًا، أما إذا ثبتت الصورة، وتقلصت أدوار المرأة؛ فإن هذا نذير بتحول اهتمامه نحو ما هو جذاب ومثير وجديد (كأي طفل – مع الاعتذار للزعماء من الرجال).

٥- الطمع الذكوري:

هو إحدى صفات الرجل حيث يريد دائمًا المزيد، ولا يقنع بما لديه خاصةً فيما يخص المرأة وعطاءها؛ فهو يريد الجمال في زوجته، ويريد الذكاء، ويريد الحنان، ويريد الرعاية له ولأولاده، ويريد الحب، ويريد منها كل شيء، ومع هذا ربما، بل كثيرًا ما تتطلع عينه، ويهفو قلبه لأخرى أو أخريات، وهذا الميل للاستزادة ربما يكون مرتبطًا بصفة التعددية لدى الرجل، والتي سبق الحديث عنها.. وربما تكون هاتان

الصفتان (الميل للتعددية، والطمع الذكوري) خادمتان للطبيعة الإنسانية ولاستمرار الحياة، فنظرًا لتعرض الرجل لأخطار الحروب وأخطار السفر والعمل، نجد دائمًا وفي كلِّ المجتمعات زيادة في نسبة النساء مقارنة بالرجال، وهذا يستدعي في بعض الأحيان أن يعدد الرجل زوجات أو يعدد علاقاته حسب قيم وتقاليد وأديان مجتمعه، وذلك لتغطية الفائض في أعداد النساء.

والمرأة الذكية هي التي تستطيع سدَّ نهم زوجها، وذلك بأن تكون «متعة للحواس الخمس»، (كما يجب أن يكون هو أيضًا كذلك)، وهذه التعددية في الإمتاع والاستمتاع تعمل على ثبات واستقرار وأحادية العلاقة الزوجية لزوج لديه ميل فطري للتعدد، ولديه قلب طفل يسعى لكي ما هو مثير وجديد وجذاب.

٥- الرجل يحبُّ بعينيه غالبًا (والمرأة تحبُّ بأذنها وقلبها غالبًا):

وهذا لا يعني تعطيل بقية الحواس، وإنما نحن نعني الحاسة الأكثر نشاطًا لدى الرجل، وهي حاسة النظر، وهذا يستدعي اهتمامًا من المرأة بما تقع عليه عين زوجها؛ فهو الرسالة الأكثر تأثيرًا، (كما يستدعي من الرجل اهتمامًا بما تسمعه أذن زوجته، وما يشعر به قلبها تبعًا لذلك»، وربما نستطيع أن نفهم ولع المرأة بالزينة على اختلاف أشكالها، وقول الله تعالى عنها: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾

[الزخرف:١٨] دليلاً على قوة جذب ما تراه عين الرجل على قلبه وبقية كيانه النفسي.. ثم تأتي بقية الحواس كالأذن والأنف والتذوق واللمس لتكمل منظومة الإدراك لدى الرجل، ولكن الشرارة الأولى تبدأ من العين، ولهذا خلق الله تعالى الأنثى، وفي وجهها وجسدها مقاييس عالية للجمال والتناسق، تلذ به الأعين، ولم يحرم الله امرأة من مظهر جمال يتوق إليه رجل.

والرجل شديد الانبهار بجمال المرأة ومظهرها، وربما يشغله ذلك، ولو إلى حين، عن جوهرها وروحها وأخلاقها، وهذا يجعله يقع في مشكلات كثيرة بسبب هذا الانبهار والانجذاب بالشكل.. وهذا الانبهار والانجذاب ليس قاصرًا على البسطاء أو الصغار من الرجال، وإنما يمتد ليشمل أغلب الرجال على ارتفاع ثقافتهم ورجاحة عقولهم.

٦- الرجل صاحب الإرادة المنفذة، والمرأة صاحبة الإرادة المحركة:

فكثيرًا ما نرى المرأة تلعب دورًا أساسيًا في التدبير والتخطيط والتوجيه والإيحاء للرجل، ثم يقوم الرجل بتحويل كل هذا إلى عمل تنفيذي، وهو يعتقد أنه هو الذي قام بكلِّ شيء، خاصةً إذا كانت المرأة ذكية، واكتفت بتحريك إرادته دون أن تعلن ذلك أو تتفاخر به.

وفي علاقة الرجل بالمرأة نجد أن في أغلب الحالات المرأة هي التي تختار الرجل الذي تحبه، ثم تعطيه الإشارة، وتفتح له الطريق، وتسهِّل له المرور، وتوهمه بأنه هو الذي أحبها واختارها، وقرر الزواج منها، في

حين أنها هي صاحبة القرار في الحقيقة، وحتى في المجتمعات التقليدية مثل صعيد مصر أو المجتمعات البدوية نجد أن المرأة رغم عدم ظهورها على السطح إلا إنها تقوم غالبًا بالتخطيط والاقتراح والتوجيه والتدبير، ثم تترك لزوجها فرصة الخروج أمام الناس، وهو «يبرم» شاربه، ويعلن قراراته، ويفخر بذلك أمام أقرانه من رؤساء العشائر والقبائل.

٧- بين الذكورة والرجولة:

ليس كلُّ ذكر رجلاً؛ فالرجولة ليست مجرد تركيبًا تشريحيًا أو وظائف فسيولوجية، ولكن الرجولة مجموعة من صفات تواتر الاتفاق عليها، مثل: القوة، والعدل، والرحمة، والمروءة، والشجاعة، والتضحية، والصدق، والتسامح، والعفو، والرعاية، والاحتواء، والقيادة، والحماية، والمسئولية.

وقد نفتقد هذه الصفات الرجولية في شخص ذكر، وقد نجدها أو بعضها في امرأة، وعندئذ نقول بأنها امرأة كالرجل أو امرأة بألف رجل؛ لأنها اكتسبت صفات الرجولة الحميدة، وهذا لا يعني أنها امرأة مسترجلة، فهذا أمر آخر غير محمود في المرأة، وهو أن تكتسب صفات الرجولة الشكلية دون جوهر الرجولة.

٨- الرجل يهتم بالعموميات خاصةً فيما يخص أمور الأسرة (في حين تهتم المرأة بالتفاصيل):

فنجد أن الرجل لا يحيط بكثير من تفاصيل احتياجات الأولاد أو مشكلاتهم، وإنما يكتفي بمعرفة عامة على أحوالهم في حين تعرف الأم

كل تفاصيل ملابسهم ودروسهم ومشكلاتهم، وهذا الوضع ينقلب في الحياة العامة، حيث نجد الرجل أكثر اهتمامًا بتفاصيل شئون عمله والشئون العامة، أي أن الاهتمام هنا اهتمامًا انتقائيًا، وربما يكون هذا كامنًا خلف الذاكرة الانتقائية لكلٍّ من الرجل والمرأة، تلك الظاهرة التي جعلت شهادة الرجل أمام القضاء تعدل شهادة امرأتين، وهذا ليس انتقاصًا من ذاكرة المرأة، وإنما يرجع لذاكرتها الانتقائية الموجهة بقوة داخل حياتها الشخصية وبيتها، في حين تتوجه ذاكرة الرجل التفصيلية نحو الحياة العامة.

٩- العمل والنجاح بالنسبة للرجل يعادل الأمومة بالنسبة للأنثى:

ولهذا لا تستغرب المرأة إعطاء الرجل (السوي) كثيرًا من وقته وتفكيره وانشغاله لعمله وطموحه ونجاحه؛ لأن كل هذا يحقق له كمال رجولته، ذلك الكمال الذي يحتاج التفوق على أقرانهن، والبروز عليهم أو من بينهم؛ فالرجل السوي يجب أن يكون مميزًا وناجحًا وسباقًا، وهذا يستدعي بذل الكثير من الجهد في مجال عمله وحياته العامة.

١٠- الغيرة المعقولة صفة أصيلة في الرجل السوي:

وهي تزداد وتصل إلى درجة الشكِّ والاتهام في حالة الشخصية البارانوية (الجنسية المثلية الكامنة)، وتضعف إلى درجة الانعدام في حالة الجنسية المثلية الظاهرة.

١١- الرجل ضعيف جدًّا أمام شيئين:

* أمام مَنْ يمدحه ويثني على تفوقه وتميزه.

* وأمام امرأة ذات أنوثة عالية، تستدعي رجولته وتوقظها.

١٢- علاقة الرجل بأمه تحدد إلى حدٍّ كبير علاقته بالمرأة بوجه عام:

فهي أول بروفة للعلاقة بالمرأة، وتنطبع في أعماقه إيجابًا أو سلبًا، وبناءً على شكل ومحتوى هذه العلاقة نجد بعض الرجال يبحثون عن صورة الأم في كلِّ امرأة يلقونها، وبعضهم الآخر يبحث عن عكس هذه الصورة، ولكلٍّ منهم دينامياته التي تحتاج لكثير من الإيضاح والتفسير، يضيق عنه هذا المقام.

* * *

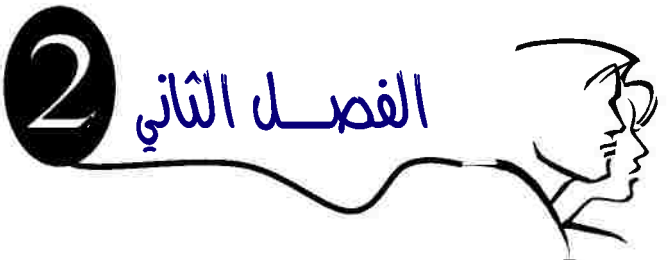

الفصل الثاني 2

فن اختيار شريك الحياة

طبيعة العلاقة الزوجية وأبعادها:

قبل أن نتحدث عن فن اختيار شريك الحياة لا بدَّ من معرفة طبيعة العلاقة الزوجية أولاً حتى نعرف متطلبات الاختيار وأهميتها:

أولاً: العلاقة الزوجية هي علاقة متعددة الأبعاد بمعنى أنها علاقة جسدية، عاطفية، عقلية، اجتماعية وروحية، ومن هنا وجب النظر إلى كلِّ تلك الأبعاد حين نفكر في الزواج، وأي زواج يقوم على بعد واحد مهما كانت أهمية هذا البعد يصبح مهددًا بمخاطر كثيرة.

ثانيًا: العلاقة الزوجية علاقة أبدية (أو يجب أن تكون كذلك)، وهي ليست قاصرة على الحياة الدنيا فقط، وإنما تمتد أيضًا للحياة الآخرة.

ثالثًا: العلاقة الزوجية شديدة القرب، وتصل في بعض اللحظات إلى حالة من الاحتواء والذوبان.

رابعًا: العلاقة الزوجية شديدة الخصوصية، بمعنى أن هناك أسرارًا وخبايا بين الزوجين لا يمكن ولا يصح أن يطلع عليها طرف ثالث.

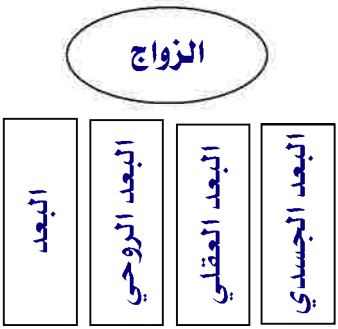

وأكبر خطأ يحدث في الاختيار الزواجي أن ينشغل أحد الطرفين ببعد واحد (اختيار أحادي البعد)، ولا ينتبه لبقية الأبعاد.

والزواج ليس علاقة بين شخصين فقط، وإنما هو أيضًا علاقة بين أسرتين، وربما بين عائلتين أو حتى بين قبيلتين، أي أن دوائر العلاقة تتسع وتؤثر في علاقة الزوجين سلبًا وإيجابًا، ومن هنا تتضح أهمية أسرة المنشأ والعائلة والمجتمع الذي جاء منهما كل طرف.. ومن التبسيط المخل أن يقول أحد الطرفين: أنا أحب شريك حياتي، ولا تهمني أسرته أو عائلته أو المجتمع الذي جاء منه؛ فالشريك لا بدَّ وأنه يحمل في تكوينه الديني والنفسي إيجابيات وسلبيات أسرته، والبيئة التي عاش فيها، ولا يمكن أن نتصور شخصًا يبدأ حياته الزوجية، وهو صفحة بيضاء ناصعة خالية من أي تأثيرات سابقة، بل الأحرى أنه عاش سنوات مهمة من حياته متأثرًا بما يحيطه من أشخاص وأحداث تؤثر في سلوكه المستقبلي، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**».

آليات الاختيار:

بعض الناس يعتقدون أن الزواج قسمة ونصيب، وبالتالي لا يفيد فيه تفكير أو تدبير أو سؤال، وإنما هو أمر مقدر سلفًا، ولا يملك الإنسان فيه شيء.. وهذه نظرة تكرس للسلبية والتواكل، ولا تتفق مع صحيح العقل والدين؛ فعلى الرغم من أن كلَّ شيء في الكون مقدر في علم الله إلا أن الأخذ بالأسباب مطلوب في كلِّ شيء، ومطلوب بشكل خاص في موضوع الزواج نظرًا لأهميته التي ذكرناها آنفًا، ومطلوب أن يغطي كل المستويات الممكنة، لذلك يمكننًا تقسيم آليات الاختيار إلى ثلاثة مستويات أو دوائر كالتالي:

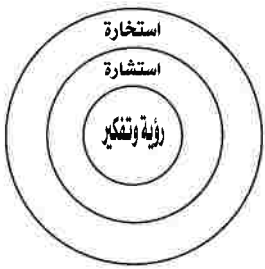

١- الرؤية والتفكير:

وذلك بأن نرى المتقدم للخطبة، ونتحدث معه، ونحاول بكلِّ المهارات الحياتية أن نستشف من المقابلة والحديث صفاته وطباعه وأخلاقه، وذلك من الرسائل اللفظية وغير اللفظية الصادرة عنه، ومن مراجعة لأنماط الشخصيات التي حددها علماء النفس، ومفاتيح تلك الشخصيات، (سيأتي تفصيل ذلك في هذه الدراسة).

٢- الاستشارة:

بأن نستشير من حولنا من ذوي الخبرة والمعرفة بطباع البشر، ونسأل المقربين أو المحيطين بالشخص المتقدم للزواج (زملاءه أو جيرانه أو معارفه)، وذلك لكي نستوفى الجوانب التي لا نستطيع الحكم عليها من مجرد المقابلة، ونعرف التاريخ الطويل لشخصيته، ونعرف طبيعة أسرة المنشأ وطبيعة المجتمع الذي عاش فيه، وفي بعض الأحيان يلجأ أحد الطرفين أو كليهما لاستشارة متخصص يحدد عوامل الوفاق والشقاق المحتملة بناءً على استقراء طبيعة الشخصيتين، وظروف حياتهما.

٣- الاستخارة:

ومهما بذلنا من جهد في الرؤية والتفكير والاستشارة تتبقى جوانب مستترة في الشخص الآخر لا يعلمها إلا الله الذي يحيط علمه بكلِّ شيء، ولا يخفى عليه شيء، ولهذا نلجأ إليه؛ ليوفقنا إلى القرار الصحيح، وخاصةً أن هذا القرار هو من أهم القرارات التي نتخذها في حياتنا، إنْ لم يكن أهمها على الإطلاق.

والاستخارة هي استلهام الهدى والتوفيق من الله بعد بذل الجهد البشري الممكن، أما من يتخذ الاستخارة بشكل تواكلي ليريح نفسه من عناء البحث والتفكير والسؤال؛ فإنه أبعد ما يكون عن التفكير السليم.

والاستخارة تتم بصلاة ركعتين بنية الاستخارة يتبعهما الدعاء التالي: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ

كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ (ويسمِّي الأمر قيد الاستشارة) خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ؛ فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ».

ونتيجة الاستخارة تأتي في صورة توفيق وتوجيه في اتجاه ما هو خير، وليست كما يعتقد العامة ظهور شيء أخضر أو أبيض في المنام، والاستخارة تعطي للإنسان سندًا معنويًا هائلاً، وتحميه من الشعور بالندم بعد ذلك.

* التوافق والتكامل، وليس التشابه أو التطابق:

وما يهم في شريكي الحياة أن يلبي كل منهما احتياجات الآخر بطريقة تبادلية ومتوازنة، وهذا لا يتطلب تشابههما أو تطابقهما، وإنما يتطلب تكاملهما بحيث يكفي فائض كل شخص لإشباع حاجات الشخص الآخر.

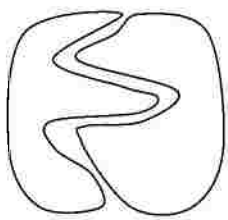

علاقة توافق

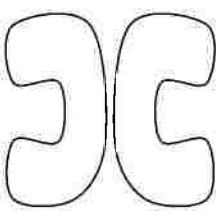

علاقة تنافر

أنماط من الشخصيات يجب الانتباه إليها عند الزواج:

ولما كان موضوع الاستشارة يعتمد أساسًا على الآخرين وأمانتهم وبصيرتهم، ونظرًا لاحتمالات الخداع في هذا الجانب بسبب ضعف التواصل بين الناس، وعدم معرفتهم ببعضهم بدرجة كافية حتى ولو كانوا جيرانًا متقابلين في عمارة واحدة أو حتى أقارب، لذلك يصبح للمقابلة الشخصية أهمية كبيرة في قرار الزواج؛ لأنها رؤية فعلية للآخر دون وسيط (خادع أو مخدوع أو مجامل).. ولكن هذه الرؤية أو المقابلة الشخصية المباشرة تحتاج لعلم ومهارة لكي نتمكن من فهم مفاتيح الشخصية وتحديد نمط سلوكها النفسية بحيث تمَّ تقسيم الشخصيات إلى أنماط لها خصائص محددة ومفاتيح تسهل قراءتها إلى حدٍّ كبير.

والناس كثيرًا ما تتجمل وتلبس أقنعة، ولكنهم لا يستطيعون طول الوقت أن يخفوا صفاتهم الحقيقية كلها، فتفلت منهم أشياء تسهِّل قراءة بقية السمات التي حاولوا إخفاءها بقصد التجمل أو الخداع، خاصةً إنْ تكررت المقابلة أكثر من مرة قبل بداية الخطوبة أو أثناء فترة الخطوبة.

وهناك مجموعة من الشخصيات يصعب جدًّا التعايش معها، ومجموعة أخرى من الشخصيات يمكن التعايش معها مع وجود بعض المتاعب والمشكلات، وسنوضح ذلك فيما يلي ليكون ذلك مفتاحًا مهمًا في يد المقبلين على الزواج وذويهم، ولنقلل احتمالات الخداع لأقل درجة ممكنة.

أولاً: شخصيات يصعب الحياة معها

١- الشخصية البارانوية (الشكاك المتعالي):

محور هذه الشخصية الشك في كلِّ الناس، وسوء الظن بهم، وتوقع العداء والإيذاء منهم؛ فكلُّ الناس في نظره أشرار متآمرون، وهو شخص لا يعرف الحب أو الرحمة أو التسامح؛ لأنه في طفولته المبكرة لم يتلق الحب من مصادره الأساسية (الوالدين)، لذلك لم يتعلم قانون الحبِّ.. وهو دائم الشعور بالاضطهاد والخيانة ممن حوله، وهذا الشعور يولد لديه كراهية وميول عدوانية ناحية كل مَنْ يتعامل معهم.. ويتخذ عدوانه صورًا كثيرة منها النقد اللاذع والمستمر للآخرين، أو السخرية الجارحة منهم، وفي نفس الوقت لا يتحمل أي نقد من أحد؛ فهو لا يخطئ أبدًا (في نظر نفسه)، وهو شديد الحساسية لأي شيء يخصه.

والشخص البارانوي لا يغيِّر رأيه بالحوار أو النقاش؛ فلديه ثوابت لا تتغير، ولذلك فالكلام معه مجهد ومتعب دون فائدة، وهو يسيء تأويل كل كلمة، ويبحث فيما بين الكلمات عن النوايا السيئة، ويتوقع الغدر والخيانة مِنْ كلِّ مَنْ يتعامل معهم.. وهو دائم الاتهام لغيره، ومهما حاول الطرف الآخر إثبات براءته؛ فلن ينجح بل يزيد من شكه وسوء ظنه، بل إن محاولات التودد والتقرب من الآخرين تجاهه تقلقه، وتزيد من شكوكه.. وفي بداية حياته تكون لديه مشاعر اضطهاد وكراهية للناس، ولذلك يسعى لامتلاك القوة (امتلاك المال أو امتلاك المناصب أو غيرها)؛ فإذا استقرت أوضاعه المالية والاجتماعية، ووصل

إلى ما يريده؛ فإنه يشعر بالاستعلاء والفخر والعظمة، ويتعالى على الآخرين، وينظر إليهم باحتقار.

والسؤال الآن: كيف نكتشفه في فترة التعارف أو في فترة الخطوبة؟!

نجده كثير الشكِّ في نوايا خطيبته، يسألها كثيرًا: أين ذهبت؟ ومع مَنْ تكلمت؟ وماذا تقصد بكلامها؟ ويجعلها دائمًا في موقف المتهمة المدافعة عن نفسها، وهو شديد الحساسية تجاه أي نقد، في حين يتهكم ويسخر من الآخرين بشكل لاذع.

وإذا كانت فتاة نجدها شديدة الغيرة بشكل مزعج، حتى من أقرب الناس.. شديدة الحساسية لأي كلمة أو موقف.. كثيرة الشكِّ بلا مبرر.. وخطيبها في نظرها كذاب ومخادع وخائن.. تعبث في أرقام الهاتف لتعرف أرقام من يتصلون به.. وتتصنت على مكالماته.. وتعبث في أوراقه أو أجنداته أو درج مكتبه للبحث عن دلائل الخيانة.

وهذه الشخصيات لا يجد الطرف الآخر أي فرصة معها للسعادة؛ فالوقت كله مستنزف في تحقيقات واتهامات، وطلب دلائل براءة، ودلائل وفاء.

والسمات البارانوية ربما نجدها بشكل ما في العوانس، والمطلقين، والمطلقات، وفي الأشخاص ذوي الميول المتطرفة.. والحياة الزوجية مع هذه الشخصيات بهذه المواصفات تكون أمرًا صعبًا، وأحيانًا متسحيلاً.

٢- الشخصية النرجسية (الطاووس - المتفرد - المعجباني):

وكلمة النرجسية جاءت من اللغة اليونانية من لفظ Narcissus ومصدرها أسطورة يونانية، تقول أنه: كان شابًّا يونانيًا يجلس أمام بركة ماء، فأعجبته صورته، فظلَّ ينظر إليها حتى مات؛ فالنرجسي معجب بنفسه أشد الإعجاب، يرى نفسه أجمل البشر وأذكاهم وأقواهم، يعتقد أنه متفرد بكل صفات التفوق، وبالتالي هو محور الكون، والكلُّ يدورون حوله، يؤدون له واجبات الولاء والطاعة، ويهيئون له فرص النجاح والتفوق، ويمتدحون صفاته المتفردة.. تعرفه حين تراه؛ فهو شديد الاهتمام بمظهره وبصحته وبشياكته، يتحدث عن نفسه كثيرًا، وعن إنجازاته وطموحاته.. مغرور إلى درجة كبيرة لا يرى أحدًا بجواره.. يستخدم الآخرين لخدمة أهدافه، ثم يلقى بهم بعد ذلك في سلة المهملات.. ليس لديه مساحة للحبِّ، فهو لا يحب إلا نفسه.. وإذا اضطر للتظاهر بالحبِّ؛ فإن حبَّه يخلو من أي عمق وأي دفء.. يميل كثيرًا للتباهي والشهرة والظهور، ويهتم بهذه الأشياء أكثر من اهتمامه بجوهر الأشياء.

ربما يستطيع من خلال تقديره العالي لذاته أن يحقق نجاحات شكلية ظاهرية تدعم لديه شعوره بالتميز، ولكن الحياة معه تكون غاية في الصعوبة؛ فهو غير قادر على منح شريكة حياته (أو شريك حياتها) أي قدر من الحبِّ، بل هو يستغل الشريك لصعود نجمه وتألقه، ثم يلقيه بعد ذلك في أقرب سلة مهملات إذا وجد أنه استنفذ.

٣-الشخصية الهيستيرية (الدرامية – الاستعراضية- الزائفة):

هذه الشخصية نجدها أكثر في الفتيات والنساء عمومًا، وهي شخصية مثيرة للجدل ومحيرة، وتشكل هي والشخصية السيكوباتية أهم الشخصيات التي كتبت فيهم الأشعار، وعنهن الروايات؛ فهي شخصية تضع من يتعامل معها في حيرة وتناقض، تراها غالبًا جميلة أو جذابة، تغرى بالحبِّ ولا تعطيه، تغوي ولا تشبع، تعد ولا تفي، والويل لمن يتعامل معها.. تبدي حرارة عاطفية شديدة في الخارج في حين أنها من الداخل باردة عاطفيًا.. تبدي إغواءً جنسيًا يهتز له أقوى الرجال، في حين أنها تعاني من البرود الجنسي في الحقيقة، وتكره العلاقة الجنسية وتنفر منها.. تعرفها من اهتمامها الشديد بمظهرها؛ فهي تلبس ألوانًا صارخة تجذب الأنظار مثل الأحمر الفاقع، والأصفر الفاقع، والأخضر الزاهي، والمزركشات..

وهي تتحدث بشكل درامي، وكأنها على المسرح، وتبالغ في كلِّ شيء؛ لتجذب اهتمام مستمعيها.. ولها علاقات متعددة تبدو حميمية في ظاهرها؛ لأنها قادرة على التلويح بالحبِّ وبالصداقة، ولكن في الحقيقة هي غير قادرة على أي منها.. وفي بدايات العلاقة تراها شديدة الحماس، وترفع الطرف الآخر في السماء، ولكن بعد وقت قصير يفتر حماسها، وتنطفئ عواطفها الوقتية الزائفة، وتهبط بمن أحبته إلى سابع أرض!!

يتعلق بها الكثيرون لجمالها وشياكتها، وأحيانًا لجاذبيتها وإغرائها، ولكنها تكون غير قادرة على حبٍّ حقيقي، وهي متقلبة وسطحية

وخادعة ومخدوعة في نفس الوقت، وبالتالي فإن الحياة الزوجية معها تبدو صعبة.

وهي شخصية هشة غير ناضجة، عندما تواجه أي ضغط خارجي لا تتحمله، فيحدث لها أعراض هستيرية (إغماء – تشنج – شلل هستيري – فقد النطق – أو غيره)، وذلك لجذب التعاطف والاهتمام ممن حولها، وإذا لم تجد ذلك؛ فهي تهدد بالانتحار بطريقة درامية، وربما تحاوله بعد أن تكتب خطابًا رومانسيًا أو تهديديًا، كلُّ هذا بهدف استعادة الاهتمام بها.

وهي أنانية لا تهتم إلا بنفسها، ولا تستطيع الاهتمام بزوجها أو بيتها أو أبنائها؛ لذلك فهي زوجة فاشلة، وأم فاشلة، تقضي معظم الوقت في شراء الملابس والمجوهرات والإكسسوارات، وتقضي بقيته في التزين، والفرجة على نفسها في المرآة، واستعراض كل هذا في المناسبات والحفلات.

٤-الشخصية السيكوباتية (النصَّاب – المحتال-المخادع – الساحر):

كذاب، مخادع، محتال، نصَّاب، عذب الكلام.. يعطي وعودًا كثيرةً، ولا يفي بأي شيء منها.. لا يحترم القوانين أو الأعراف أو التقاليد، وليس لديه ولاء لأحد، ولكن كل ولائه للذاته وشهواته.. يسخِّر الجميع للاستفادة منهم واستغلالهم، وأحيانًا ابتزازهم.. لا يتعلَّم من أخطائه، ولا يشعر بالذنب تجاه أحد.. لا يعرف الحبَّ، ولكنه بارع في الإيقاع بضحاياه، حيث يوهمهم به، ويغريهم بالوعود الزائفة، ويعرف

ضعفهم ويستغلهم.. عند مقابلته ربما تنبهر بلطفه وقدرته على استيعاب من أمامه، وبمرونته في التعامل، وشهامته الظاهرية المؤقتة، ووعوده البراقة، ولكن حين تتعامل معه لفترة كافية أو تسأل أحد المقربين منه عن تاريخه تجد حياته شديدة الاضطراب، ومليئة بتجارب الفشل والتخطيط والأفعال اللاأخلاقية، وربما يكون قد تعرض للفصل من دراسته أو من عمله أو دخل السجن بسبب قضايا نصب أو احتيال أو انتحال شخصيات، أو أنه يتعاطى المخدرات بكثرة.

وهذا النموذج يعرفه أصحاب الخبرة في الحياة، ولكن تنخدع به الفتيات الصغيرات؛ فهو ينصب الفخ لفتاة قليلة الحظِّ من الجمال، ويوهمها بالحبِّ، ومن خلال هذا الوهم يبتزها ويستنزفها (ماديًا أو جنسيًا)، ويدفعها للصراع مع أهلها؛ لإرغامهم على الموافقة على الزواج منه، وإذا حاولوا أن ينصحوها بالابتعاد عنه (لما يعرفونه عنه، وعن أسرته من انحراف) تزداد هي عنادًا، وتمسكًا به، وإذا وافق الأهل مضطرين تحت ضغط ابنتهم المخدوعة وإلحاحها؛ فإنه سرعان ما يتهرب منها، ويغدر بها، وإذا حدث وتزوَّجها؛ فإنه يذيقها الأمرين بسبب نزواته وانحرافاته وفشله، وعدم تقديره للمسئولية.

٥-الشخصية الإدمانية (الباحث عن اللذة دائمًا):

هذا الشخص دائمًا لديه رادارًا يبحث عن اللذة في أي شيء، وفي أي موقف؛ فاللذة هي المحرك الأساسي لسلوكه، ولذلك نراه يجرِّب سائر أنواع المخدرات والمكسرات، ويفاضل بينها، وينشغل بها، ويجرِّب سائر أنواع العلاقات العاطفية والجنسية بحثًا عن الأكثر لذةً، والأكثر

متعةً؛ فهو أولاً وأخيرًا ذواقة للأشياء وللبشر، ولا يعرف الوفاء لأي شيء، ولا لأي شخص، وبالتالي لا تدوم معه الحياة، ولا يشعر بالمسئولية الدائمة تجاه أحد، وحياته شديدة التقلب شديدة الاضطراب.. تعرفه وهو يمسك بالسيجارة، ويستنشق دخانها بعمق شديد منسجمًا ومستمتعًا.. وتجد لديه تعلقات كثيرة بمشروبات أو مأكولات؛ فهو عاشق متيم بالتدخين ،وبفنجان القهوة، وبسيجارة الحشيش أو البانجو.. وكثير التعاطي للمهدئات والمسكنات والمنشطات والمسكرات.. والمرأة بالنسبة لهذا الشخص لا تعدو كونها موضوع جنسي استمتاعي مثل أي شيء يستمتع به، ثم يلقيه على قارعة الطريق مثل الزجاجات الفارغة، أو يضعها في الطفاية مثل أعقاب السجائر.

وهو رغم ذلك عذب الحديث، وجذاب بالنسبة للجنس الآخر، ويوهمهم بأنه عازم على ترك إدمانه، وأن الحبَّ هو الدواء العظيم له، وتنخدع الضحية، وتعتقد أنها ستقوم بدور عظيم في علاج وهداية هذا الشاب الطيب الذي ظلمته الحياة، وظلمه الناس، ولم يفهموه، وتصرُّ على إتمام الخطوبة والزواج منه، رغم معارضة أهلها لما يعرفوه عنه من سلوك إدماني، وبعد ذلك تحدث الكارثة، وتكتشف المخدوعة أن الإدمان في دمه، وليس في يده.

وعلامات هذه الشخصية التي يمكن أن تظهر في فترة التعارف أو الخطوبة: التدخين بشراهة، واستعمال أنواع متعددة من المخدرات والمسكرات، وليس شرطًا أن يكون مدمنًا لها جميعًا، وتعدد علاقاته العاطفية والجنسية، واضطراب مسار عمله.

ثانيًا: شخصيات يمكن التعايش معها مع بعض المتاعب والمشكلات:

١-الشخصية الوسواسية (المدقق – العنيد – البخيل):

والشخص الوسواسي يلتزم التزامًا صارمًا بالدقة الشديدة والنظام الحرفي في كلِّ شيء، ويهتم بالتفاصيل الصغيرة، ولا يدع أي شيء دون مناقشته وبحثه بشكل مرهق، وهو عنيد لا يتنازل عن شيء، ولا يتسامح في شيء، وهو حريص وحرصه يصل أحيانًا لدرجة البخل، وعقلاني لا يولي المشاعر اهتمامًا.

وعلاماته في فترة الخطوبة أنه يسأل عن كلِّ التفاصيل، ويعمل لكلِّ شيءٍ ألف حساب، ويكون ممسكًا جدًّا في الإنفاق، وفي الهدايا، ومشغولاً بحساب كل شيء، وبخل الوسواسي لا يتوقف عند المال فقط، فكما أنه بخيل ماديًا؛ فهو بخيل عاطفيًا، لا يعبر عن مشاعره، ولا يحوط شريكة حياته بعواطفه؛ فالحياة لديه جافة وعقلانية ومحسوبة بدقة.

وربما يسأل سائلٌ: وما فائدة الحياة معه إذًا؟! ولماذا يتحمله شريكه أو شريكته؟!

الإجابة هي: أن الوسواسي على الرغم من صفاته السابقة إلا أنه إنسان منظم، دقيق، ذو ضمير حي، يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، ولديه شعور عالٍ بالمسئولية، ويعتني بعمله عناية فائقة، وينجح فيه، ويعتني أيضًا باحتياجات أسرته (المادية) في حدود رؤيته لهذه الاحتياجات (الأساسية فقط)، وهو حريص على استمرارية الأسرة؛ لأنه لا يميل للتغيير كثيرًا، ولا يهتم بإقامة علاقات عاطفية خارج إطار

الزواج؛ فهو زوج محترم ومسئول على الرغم من بخله وجفاف عواطفه.

٢-الشخصية الحدية (المتقلب في مشاعره وعلاقاته وقراراته وعمله):

هذا الشخص (سواء كان رجلاً أو امرأةً) نجده شديد التقلب في مشاعره؛ فهو يغضب بسرعة، ويهدأ بسرعة، ويفرح بسرعة، ويتقلب بين المشاعر المختلفة بشكل عنيف في لحظات قصيرة.. والناس يصفونه بأنه سريع الانفعال، ولكنه يمكن أن يهدأ سريعًا؛ فهو «قلبه طيب»، ولكن في الحقيقة هذا الشخص يدمِّر أشياء كثيرة مهمة في حياته أثناء لحظات غضبه، ولذلك يمكن أن يخسر صديقًا عزيزًا أو زوجةً مخلصةً أو عملاً مهمًا.. وهذا يجعلنا نتوقع تقلبات موازية في العلاقات بالآخرين؛ فعلاقاته لا تستمر كثيرًا، وأيضًا في العمل نجده ينتقل من عمل لآخر، ولا يستقر على شيء، وهذه علامات يمكن معرفتها من تاريخه الشخصي، ويمكن أيضًا رصدها في فترة الخطوبة.

وصاحب هذه الشخصية (أو صاحبتها) يمرُّ كثيرًا بفترات اكتئاب، ويمكن أن تراوده أفكار انتحارية، وبعضهم يلجأ لتعاطي المخدرات في محاولة للسيطرة على تقلباته الانفعالية، واضطراب علاقاته الإنسانية، واضطراب مساره في العمل.

٣- الشخصية السلبية الاعتمادية (ابن أمه – أو بنت أمها):

هذه الشخصية لا تستطيع اتخاذ قرار أو عمل أي شيء بمفردها، بل تحتاج دائمًا للآخرين في كلِّ شيء؛ فليست لديها القدرة على المبادرة أو

القدرة على التنفيذ، وإنما هي تعمل فقط بتوجيه من الآخرين، وأحيانًا لا تعمل على الإطلاق، وتنتظر من الآخرين العون والمساندة طول الوقت.. وهو إنْ كان شابًّا نجده يأتي للخطبة مع أمه، وهي تتحدث بالنيابة عنه طول الوقت، وفي زياراته التالية لا يستطيع البت في أي شيء دون الرجوع لأمه (أو أبيه أو أخيه الأكبر)؛ فلا بدَّ من وجود أحد في حياته يعتمد عليه، وإنْ كانت فتاة نجد أمها تحركها كما تشاء، وتسيطر على علاقتها بخطيبها أو زوجها؛ فتتدخل في كلِّ شيء في علاقتها.

وهذا الشخص في حالة كونه زوجًا يحتاج من زوجته أن تقوم بكلِّ شيء، وتتحمل مسئولية الأسرة، ويصبح هو في خلفية الصورة دائمًا، وهذا يشكِّل عبئًا على الزوجة، إضافةً إلى إحساسها المؤلم بضعف زوجها وسلبيته، ومع هذا نجد أن هذا الزوج مطلوب جدًّا من المرأة المسترجلة قوية الشخصية؛ لأنها ترغب أن تكون هي الأقوى في العلاقة الزوجية.

٤- الشخصية الاكتئابية (الحزين – المهزوم – اليائس):

وهو (أو هي) شخصية كئيبة لا ترى في الحياة إلا الآلام والدموع والبؤس والشقاء والمشاكل.. ويرى نفسه سيئًا، والحياة سيئة، والمستقبل مظلم.. وهذا الشخص نجده دائمًا يتحدث عن المصاعب والمشكلات والمعوقات والمآسي، وهو غير قادر على المبادرة أو المثابرة، بل ينهزم سريعًا أمام أية مصاعب، ويبأس بسرعة.. وهذه المشاعر الكئيبة اليائسة تنتقل إلى من يتعامل معه؛ فيشعر معه بهذا البؤس واليأس، ويعيشان معًا في جو من الكآبة والهزيمة والتشاؤم.. وفي هذا الجو لا نتوقع إنجازات

كبيرة ذات قيمة؛ لأن الشخصية الاكتئابية تعيش حالة من العدمية، لا تسمح كثيرًا بالنجاح والتميز.

٥-الشخصية النوابية (تقلبات المزاج الدورية):

هذا الشخص نجده لعدة أيام أو أسابيع (وأحيانًا شهور) مرحًا منطلقًا نشيطًا، ومليئًا بالحيوية والأفكار، ثم يتبع ذلك فترة نجده، وقد انقلب حزينًا منطويًا يائسًا ومترددًا.. وهكذا تستمر حياته بين تقلبات المرح والاكتئاب.

وهذه الشخصية منتشرة بين المبدعين والمفكرين، وهي شخصية ثرية وساحرة ومتعددة الألوان والمستويات، ولكنها تحتاج من الطرف الآخر جهدًا كبيرًا لمواكبة هذه التغيرات النوابية من النقيض إلى النقيض.

٦- الشخصية فصامية الشكل (غريب الأطوار والأفكار):

هذا الشخص نعرفه من ملابسه الغريبة غير المتوافقة مع المجتمع الذي يعيش فيه، حيث تتسم بالغرابة، وأيضًا أفكاره وكلامه؛ نجد فيه نفس الغرابة، فنجده مثلاً يهتم بشيء هامشي، ويعتبره قضية محورية (مثل ثقب الأوزون أو مثلث برمودا أو أنواع معينة من الكائنات أو الأطباق الطائرة أو الظواهر الخارقة للعادة).. وسلوكه أيضًا يتسم بالغرابة، ولهذا يصفه الناس بأنه غريب الأطوار «لاسع» «مخه ضارب»، على الرغم من أنه ليس مجنونًا.. ومن السهل التعرف عليه في فترة الخطوبة من خلال آرائه الغريبة، واهتماماته الهامشية، وملابسه وكلامه وجلسته.. وهذا الشخص يكون أكثر قابليةً للإصابة بمرض الفصام،

وهو يميل إلى العزلة حيث يعيش عالمًا خاصًا به، يشكله من أفكاره وتخيلاته الذاتية، ومع هذا لا يفقد صلته تمامًا بالواقع؛ فهو يتصل به على قدر حاجته الضرورية منه.

* فارق السن:

هناك سؤال يردده كثير من الناس:

ما هو فارق السن المثالي بين الزوج والزوجة؟

وللإجابة عن هذا السؤال نستخدم نتائج الإحصاءات حول التوافق الزوجي، فقد وجد أن أفضل فارق في السن هو أن يكبر الرجل المرأة بـ (٣- ٥) سنوات، ولكن حين يزيد هذا الفارق عن ١٠ سنوات تبدأ علامات عدم التوافق في الظهور؛ لأن فارق أكثر من ١٠ سنوات ربما يجعل كلا من الزوجين ينتمي إلى جيل مختلف تمامًا، وبالتالي تختلف اهتماماتهما وأفكارهما بشكل كبير، ربما يجعل التفاهم والتوافق يمرُّ ببعض الصعوبات؛ فالفتاة الصغيرة ترغب في المرح والانطلاق والاستكشاف في حين يميل زوجها العجوز إلى الجدية والهدوء والتأمل والاستقرار، هذا فضلاً عن الفوارق في الاحتياجات العاطفية والجنسية.

وقد خطب أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- فاطمة بنت رسول الله ﷺ؛ فقال: «إنها صغيرة»، فلما خطبها علي ﷺ زوَّجها إياه.

وقد يقول قائلٌ: إنَّ رسول الله ﷺ تزوَّج السيدة عائشة -رضي الله عنها- وهي صغيرة، وكان يكبرها بكثير.

والإجابة هنا: أن لرسول الله ﷺ خصوصيته المبنية على كونه رسولاً، وأيضًا على خصائصه الشخصية المتفردة، وقد اتضح ذلك بعد زواجه من السيدة عائشة -رضي الله عنها- حيث كان قادرًا على إسعادها بكلِّ الوسائل؛ فكان يسابقها، ويلاعبها، ويمازحها، ويلطف بها، وكانت هي غاية في السعادة بزوجها العظيم رغم فارق السن.

وهنا يجعلنا نقول: إنَّ القاعدة العمرية - على الرغم من أهميتها - لها استثناءات في ظروف بعينها، كما سنرى لاحقًا.

أنماط الزيجات:

هناك ثلاثة أنماط رئيسة للزيجات قائمة على فارق السن، وعلى الدور الذي يلعبه كل شريك مع الآخر:

١- **الزوجة الأم:** وهي غالبًا أكبر سنًا من الزوج، وتقوم هي بدور رعايته واحتوائه.

٢- **الزوجة الصديقة:** هي قريبة في السن من زوجها، ولهذا فالعلاقة بينهما تكون علاقة متكافئة، أقرب ما تكون إلى علاقة صديقين، يرعى كل منهما الآخر بشكل تبادلي.

٣- **الزوجة الابنة:** وهي تصغر الزوج بسنوات كثيرة، ولذلك يتعامل معها كطفلة يدللها ويرعاها، ويتجاوز عن أخطائها، بينما تلعب هي دور الطفلة، وتسعد به

وربما يسأل سائلٌ: ما هو النمط المثالي من بين هذه الأنماط؟

والإجابة هي: أن الزواج مسألة توافق بين الطرفين؛ فكلما كان كل طرف يلبي احتياجات الآخر كان التوافق متوقعًا، ومن هنا يصعب القول بأن نمطًا محددًا هو النمط المثالي، حيث إن لكل زوج وزوجة احتياجات متباينة، يبحث عنها في نمط معين، يلبي هذه الاحتياجات، وإنْ كانت القاعدة العامة هي أن يكبر الزوج الزوجة، ويسبقها في مراحل النضج النفسي والاجتماعي.

والرسول ﷺ كان له في حياته هذه الأنماط الثلاثة من الزيجات؛ فقد كان له «الزوجة الأم» ممثلةً في السيدة خديجة -رضي الله عنها- وكأنما كان يعوِّض بها حنان الأم الذي افتقده، وهو صغير، وكان وجودها مهمًا جدًّا في هذه الفترة من حياته، حيث كان في حاجة إلى مَنْ يحتويه ويرعاه ويسانده، خاصةً في المراحل الأولى من الدعوة.. وتزوَّج في مراحل تالية «الزوجة الصديقة» متمثلةً في السيدة حفصة والسيدة زينب بنت جحش -رضي الله عنهما- ثم كان له نمط «الزوجة الابنة» ممثلاً في السيدة عائشة -رضي الله عنها- والتي اقترن بها في مرحلة من عمره، استقرت فيها الدولة والرسالة، وأصبح في وضع يسمح له برعاية واحتواء وتدليل زوجة صغيرة، وكأنما كان ﷺ يواكب احتياجات فطرته، كما يواكب احتياجات رسالته؛ فزيجاته كانت تحقق في مراحلها وأنماطها المختلفة تلبيةً لاحتياجات فطرته المشروعة، وتلبيةً لاحتياجات الرسالة من

مصاهرة، وتقوية صلات، ورواية حديث، ورعاية أُسر مات عائلها.

التكافؤ:

وهو يعني تقارب الزوجين من حيث السن والمستوى الاجتماعي والثقافي والقيمي والديني، ذلك التقارب الذي يجعل التفاهم ممكنًا، حيث توجد مساحات مشتركة تسمح بدرجة عالية من التواصل بين الطرفين.

وكثيرًا ما يحاول المحبون القفز فوق قواعد التكافؤ اعتقادًا بأن الحبَّ كفيل بتجاوز الحدود العمرية والاجتماعية والثقافية والدينية، ولكن بعد الزواج حين تهدأ حرارة الحبِّ تبدأ هذه العوامل في التكشف شيئًا فشيئًا، وينتج عنها عوامل شقاق عديدة.

وكلما توافر للزواج أكبر قدر من عوامل التكافؤ كلما كانت احتمالات نجاحه أعلى.. وهذه القاعدة لها استثناءات عديدة؛ فأحيانًا يكون هناك عامل أو عاملان من عوامل التكافؤ مفقودًا، ولكن يعوِّضه أو يعوِّضهما عوامل أخرى أكثر قوةً وأهميةً.

سوء التوافق المحسوب:

أحيانًا نجد زوجين بينهما اختلافات هائلة في العمر أو في المستوى الاجتماعي أو الثقافي أو الديني، وهذه الاختلافات تنبئ باضطراب التوافق بينهما، ولكننا نجد في الواقع أنهما متوافقان (أو على الأقل متعايشان، رغم ما بينهما من عوامل شقاق)، والسبب في ذلك أن كلا

منهما يحتاج الآخر على الرغم مما بينهما من سوء توافق ظاهري؛ فمثلاً نجد زوجة حسناء صغيرة السن قد تزوَّجت رجلاً يكبرها كثيرًا في السن، فنحن نتوقع لها التعاسة، ولكنها في الحقيقة متوافقة؛ لأن المال والحياة المرفهة تعني الكثير بالنسبة لها، وهي لا تستطيع الاستغناء عنها، إضافةً إلى أن هذه الزوجة الصغيرة افتقدت في طفولتها حنان الأب، وهي في حاجة شديدة إلى من يعوِّضها هذا الحنان؛ لذلك نجدها تنفر من أبناء جيلها، وتعتبرهم شبابًا طائشين غير ناضجين، وتتوق إلى الزواج من شخص ناضج، حتى ولو كان يكبرها بسنوات عديدة.. أو أننا نرى زوجةً قويةً ومسترجلةً تقود زوجها وتسيطر عليه، فنتوقع أنهما غير سعيدين، ولكن في الواقع نجد أنهما متوافقان؛ لأن الزوج لديه الرغبة في أن يحتمي بأحد، وأن يرعاه أحد، فيجد ذلك عند زوجته، خاصةً إذا كان قد حرم حنان الأم؛ فيحتاج إلى أن يلعب دور الطفل مع زوجة تلعب دور الأم.. وهناك الكثير من الخيارات التي تبدو شاذة أو غريبة، ولكنها في الحقيقة تحقق هذه الحالة من عدم التوافق المحسوب.

ومن المفارقات أن نجد فتاةً عانت من قسوة أبيها واستبداده، ومع هذا نجدها عند زواجها قد اختارت زوجًا مستبدًا، وكأنها قد أدمنت العيش تحت السيطرة والقهر؛ فلا تستطيع أن تحيا بغير هذا النمط من الرجال، ونجدها تفعل ذلك، وتتوافق معه، على الرغم من شكواها المستمرة من القسوة والاستبداد.

أهمية أسرة المنشأ:

تلعب أسرة المنشأة دورًا هامًا في تشكيل شخصية شريك الحياة؛

فالشخص الذي عاش في جو أسري هادئ ودافئ في حضن أبوين متحابين متآلفين، ومع إخوة وأخوات يتعلَّم معهم وبهم معنى العيش مع آخرين، هذا الشخص نتوقع نجاحه أكثر في الحياة الزوجية؛ لأن نموذج الأسرة بكل أركانها يكون مطبوعًا في برنامجه العقلي والوجداني، فهو أكثر قدرةً على أن يحب ويحب، وأن يعطي ويأخذ، وأكثر قدرةً على العيش المستقر الدائم مع شريك الحياة، وعلى العكس من ذلك نجد أن الشخص الذي رأى وعاش تجربة انفصال والديه، وتفكك الأسرة، نجده أكثر قدرةً على الهجر، وعلى الانفصال عن شريكه؛ لأنه تعوَّد على الهجر، وتعوَّد على الاستغناء عن الآخر، ولا يجد صعوبة في ذلك، كما أن نموذج الأسرة ليس واضحًا في عقله ووجدانه.

وقد قام «والتر ترومان» وهو أستاذ لعلم النفس بإحدى الجامعات الألمانية بدراسة طبائع الشبان والشابات بناءً على ترتيبهم أو ترتيبهن في أسرة المنشأ، ومناسبة النماذج المختلفة لبعضها البعض؛ فوجد التالي:

* الفتاة التي تبحث عن قوة الشخصية والثروة عليها أن تركز جهودها في البحث عن أكبر إخوته؛ فهو عادةً أكثرهم توفيقًا ونجاحًا، وعادةً أقواهم شخصيةً، وأقدرهم على فهم الناس، وعلى الإنجاز.

* وإذا كانت تبحث عن الحنان؛ فستجده في قلب شابٍّ له أخوات أصغر منه.

* وإذا كانت تبحث عن زوج ضعيف الشخصية تحركه كيف تشاء؛ فإنها نجد هذا في أصغر الأبناء في الأسرة، فهو قد تعوَّد على تلقي الأوامر والتعليمات، ولم يتعود على إصدارها، والعروس التي تبحث

عن هذا النمط من الأزواج هي (عادةً) الأخت الكبرى، والتي قد تعوَّدت أن تكون صاحبة الرأي والسلطة.

* والعريس الملائم لأصغر أخواتها هو أكبر إخوته؛ فقد تعوَّد أن يكون الحاكم بأمره، وتعوَّدت هي على تلقي الرعاية، وتلقي الأوامر.

أنماط النساء في التراث العربي:

وقد ورد في التراث العربي تسميات عديدة للنساء بلغت في مجموعها حوالي إحدى وسبعين اسمًا، وكلُّ اسم يحمل خصائص جسدية أو نفسية خاصة، وهذه التعددية بقدر ما تعطي ثراء المعرفة العربية توضح إلى أي مدى حرص الرجال على معرفة طبائع النساء وأمزجتهن؛ تسهيلاً لاختيار المناسبة منهن لذوق الرجل واحتياجاته.

وفيما يلي استعراض لهذه الأنماط (نقلاً عن موقع قهوة كتكوت):

١- الربحلة: المرأة إذا كانت ضخمة، وفي اعتدال.

٢- السبحلة: المرأة إذا زادت ضخامتها، ولم تقبح.

٣- الجارية: المرأة إذا كانت طويلة وسبطة.

٤- الوضيئة: المرأة التي بها مسحة من الجمال.

٥- العطبول: المرأة الطويلة العنق في اعتدال وحسن.

٦- الغانية: المرأة إذا استغنت بجمالها عن الزينة.

٧- الوسيمة: المرأة إذا كان جسدها ثابتًا كأنها رسمت به.

٨- القسيمة: المرأة صاحبة الحظ الوافر من الحسن.

٩- الرعبوبة: المرأة إذا كانت بيضاء اللون رطبة.

١٠- الزهراء: المرأة التي يميل بياضها إلى صفرة، كلون القمر والبدر.

١١- الدعجاء: المرأة شديدة سواد العين مع سعة المقلة.

١٢- الشنباء: المرأة رقيقة الأسنان المستوية الحسنة.

١٣- الخود: المرأة الشابة حسنة الخلق.

١٤- المملودة: المرأة إذا كانت دقيقة المحاسن.

١٥- الخرعبة: المرأة حسنة القد، ولينة العصب.

١٦- المبتلة: المرأة التي لم يركب لحمها بعضه بعضًا.

١٧- الخمصانة: المرأة إذا كانت لطيفة البطن.

١٨- الممشوقة: المرأة لطيفة الخصر مع امتداد القامة.

١٩- الخدلجة: المرأة السمينة الممتلئة الذراعين والساقين.

٢٠- المرمادة: المرأة السمينة التي ترتج من سمنها.

٢١- الرقراقة: المرأة التي كأن الماء يجري في وجهها.

٢٢- البضَّة: المرأة إذا كانت رقيقة الجلد وناعمة البشرة.

٢٣- النظرة: المرأة إذا رأيت في وجهها نضرة النعيم.

٢٤- الوهنانة: المرأة إذا كانت بها فتور عند القيام لسمنها.

٢٥- البهنانة: المرأة إذا كانت طيبة الريح.

٢٦- العرهرة: المرأة عظيمة الخلق مع الجمال.

٢٧- العبقرة: المرأة الناعمة الجميلة.

٢٨- الغيداء: المرأة إذا كانت متثنية اللين المتعمدة له.

٢٩- الرشوف: المرأة طيبة الفم.

٣٠- الأنوف: المرأة إذا كانت طيبة ريح اليد.

٣١- الرصوف: المرأة إذا كانت طيبة الخلوة.

٣٢- الشموع: المرأة اللعوب الضحوك.

٣٣- الفرعاء: المرأة إذا كانت تامة الشعر.

٣٤- الرخيمة: المرأة إذا كانت منخفضة الصوت.

٣٥- العروب: المرأة إذا كانت محبة لزوجها، المتحببة إليه.

٣٦- النوار: المرأة إذا كانت نفورًا من الريبة.

٣٧- القذور: المرأة المتجنبة الأقذار.

٣٨- الحصان: المرأة العفيفة.

٣٩- البنون: المرأة كثيرة الولد.

٤٠- النزور: المرأة قليلة الولادة.

٤١- المذكار: المرأة التي تلد الذكور فقط.

٤٢- المئناث: المرأة التي تلد الإناث فقط.

٤٣- المهاب: المرأة التي تلد مرة ذكر ومرة أنثى.

٤٤- المقلات: المرأة التي لا يعيش لها ولد.

٤٥- المنجاب: المرأة التي تلد النجباء.

٤٦- المحمقة: المرأة التي تلد الحمقى.

٤٧- الممكورة: المرأة المطرية الخلق.

٤٨- اللدنة: المرأة اللينة الناعمة.

٤٩- المقصدة: المرأة التي لا يراها أحد إلا أعجبته.

٥٠- الخبرنجة: المرأة الجارية الحسنة الخلق في استواء.

٥١- الرجراجة: المرأة الدقيقة الجلد.

٥٢- الرتكة: المرأة الكثيرة اللحم.

٥٣- الخريدة: المرأة الحبيبة.

٥٤- الطفلة: المرأة الناعمة الملمس.

٥٥- العطبولة: المرأة طويلة العنق.

٥٦- البارقة: المرأة بيضاء الثغر.

٥٧- الدهثمة: المرأة السهلة.

٥٨- العاتق: المرأة التي لم تتزوَّج.

٥٩- الباهرة: المرأة التي تفوق غيرها من النساء في الجمال.

٦٠- البهنانة: المرأة الضاحكة المتهللة.

٦١- الغيلم: المرأة الحسناء حسنة الخلق.

٦٢- المتحرية: المرأة حسنة المشية في خيلاء.

٦٣- العيطموس: المرأة الفطنة الحسناء.

٦٤- السلهبة: المرأة خفيفة اللحم.

٦٥- العزيزة: المرأة الغافلة عن الشر.

٦٦- الرائعة: المرأة التي تسرُّ كلَّ مَنْ ينظر إليها.

٦٧- البلهاء: المرأة الكريمة.

٦٨- الفيصاء: المرأة الطويلة العنق.

٦٩- المجدولة: المرأة الممشوقة.

٧٠- السرعوفة: المرأة الناعمة الطويلة.

٧١- الشموس: المرأة التي لا تطمع الرجال في نفسها.

أنماط الاختيار الزواجي:

وفيما يلي أهم أنماط الاختيار التي يتبعها الناس، وليس بالضرورة أن يلتزم المختارون أحد هذه الأنماط منفردًا، بل قد يختار الشخص بأكثر من نمط، وكلما تعددت وسائل الاختيار وأنماطه، كلما كان أقرب إلى التوازن، خاصةً إذا كان ملتزمًا بالأنماط الصحيحة في الاختيار:

١- العاطفي:

وفيه يكون الاختيار قائمًا على عاطفة حب قوية، لا تخضع للعقل، ولا للمنطق، والشخص هنا يعتقد أن الحبَّ – وحده – كفيل بحلِّ كل المشاكل، وكفيل ببناء حياة زوجية سعيدة، وبالتالي يكون غير قادر على سماع أو تفهم نصائح الآخرين له.. ويكون شديد العناد في الدفاع عن اختياره على الرغم من وجود عقبات منطقية كثيرة، تؤكد عدم التوافق في الزواج، وكلما زادت محاولات إقناع هذا الشخص (رجلاً كان أو امرأةً)، كلما ازداد إصرارًا وعنادًا، ولا يوجد حل في هذه الحالة غير ترك الشخص يخوض التجربة بنفسه، بحيث يسمح له بالخطبة، (وينصح في هذه الأحوال بإطالة فترة التعارف أو الخطبة)، ثم تتكشف له عيوب الطرف الآخر إلى أن يعاني منها، وهنا فقط يمكن أن يتراجع.

٢- العقلاني:

وهو يقوم على حسابات منطقية لخصائص الطرف الآخر، وبالتالي يخلو من الجوانب العاطفية.

٣- الجسدي:

ويقوم على الإعجاب بالمواصفات الشكلية للطرف الآخر، مثل: جمال الوجه أو جمال الجسد.

٤- المصلحي:

وهو جواز يهدف إلى تحقيق مصلحة مادية أو اجتماعية أو وظيفية

من خلال الاقتران بالطرف الآخر، وهذا الاختيار يسقط تمامًا إذا يئس صاحبه من تحقيق مصلحته، أو إذا استنفذ الطرف الآخر أغراضه.

٥- الهروبي:

وفي هذا النمط نجد الفتاة مثلاً تقبل أي طارق لبابها هربًا من قسوة أبيها، أو سوء معاملة زوجة أبيها، أو أخيها الأكبر، ولذلك لا تفكر كثيرًا في خصائص الشخص المتقدم لها بقدر ما تفكر في الهروب من واقعها المؤلم.

٦- الاجتماعي:

وهذا الاختيار يقوم على أساس رؤية المحيطين بالطرفين من أهل وأصدقاء، حيث يرون أن هذا الشاب مناسب لهذه الفتاة؛ فيبدءون في التوفيق بينهما، حتى يتم الزواج.. وهو زواج قائم على أسس التوافق الاجتماعي المتعارف عليه بين الناس، ولا يوجد دور إيجابي للطرفين الشريكين فيه غير القبول أو الرفض لما يفترضه الآخرون.

٧- العائلي:

وهو زواج بقصد لمّ الشمل العائلي أو اتباع تقاليد معينة، مثل: أن يتزوج الشاب ابنه عمه أو ابنة خاله، أو أن يتزوج الشخص من قبيلته دون القبائل الأخرى.

٨- الديني:

وهو اختيار يتم بناءً على اعتبارات دينية أو المنتمية لنفس طائفته أو

جماعته التي ينتسب إليها، وهذا الاختيار يؤيِّده حديث رسول الله ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه؛ فزوِّجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» (أخرجه الترمذيُّ وحسَّنه، وابن ماجه).

٩- العشوائي:

في هذه الحالة نجد الفتاة مثلاً قد فاتها قطار الزواج؛ لذلك تقبل أي زيجة حتى لا تطول عنوستها.

١٠- المتكامل [متعدد الأبعاد]:

وفيه يراعي الشخص عوامل متعددة لنجاح الزواج، حيث يشتمل على الجانب العاطفي، والجانب العقلي، والجانب الجسدي، والجانب الاجتماعي، والجانب الديني... إلخ، وهذا هو أفضل أنماط الاختيار، حيث يقوم الزواج على أعمدة متعددة.

وبعض الناس يقولون: إنَّ عامل الدين هو العامل الوحيد الذي يجب أن يقوم عليه الزواج، وذلك مصداقًا لحديث رسول الله ﷺ الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وهذا الحديث الشريف أعطى أهمية أكبر لذات الدين؛ فارتباط المرأة (أو الرجل) بدين يعني ارتباطها بالله وتقديسها له، وينتج عن هذا التقديس احترام لإنسانية الإنسان وكرامته؛ لأنه أكرم مخلوقات الله، واحترام للحياة والحفاظ عليها؛ لأنها نعمة من الله تعالى، وبالتالي تبني الحياة الزوجية على مفهوم القداسة، ومفهوم الاحترام، ومفهوم

الكرامة، ومفهوم السكن، ومفهوم المودة والرحمة، وكلُّ هذه المفاهيم عوامل نجاح للحياة الزوجية، أما مَنْ تسقط هذه الاعتبارات من الحياة الزوجية؛ فالحياة معها تكون في غاية الصعوبة.

ومع هذا لا نغفل بقية الجوانب، والتي ذكرها الرسول ﷺ في أحاديث أخرى؛ فقال ﷺ: «**خير النساء مَن إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا أقسمت عليها أبرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك**» (رواه النسائيُّ وغيره بسند صحيح)، ونلحظ أن هذا الحديث بدأ بالمنظر السار للمرأة، ثم أكمل ببقية الصفات السلوكية.

وقد خطب المغيرة بن شعبة امرأة، فأخبر رسول الله ﷺ؛ فقال له: «**اذهب فانظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**»، والنظر هنا يختص بالناحية الجمالية، وناحية القبول، والارتياح الشخصي، والتآلف الروحي.

وقد بعث الرسول ﷺ أم سليم إلى امرأة؛ فقال: «**انظري إلى عرقوبها، وشمي معاطفها**»، وفي رواية: «**شمي عوارضها**» (راوه أحمد، والحاكم، والطبراني، والبيهقي).

ولما علم الرسول ﷺ بزواج جابر بن عبد الله رضي الله عنه من امرأة ثيب، قال له: «**هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك**».

من كلِّ هذه الأحاديث نفهم أن الرسول ﷺ قد جعل عامل الدين والأخلاق عاملاً مهمًا جدًّا، ومؤثرًا في الاختيار، ومع ذلك لم يسقط العوامل الأخرى التي يقوم عليها الزواج، بما في ذلك العوامل الجسدية.

* الانجذاب السريع لبعض الأشخاص (الحب من أول نظرة):

يرجع ذلك إلى الاحتمالات التالية منفردةً أو مجتمعةً:

١- الخبرات المبكرة في الحياة، حيث ارتبطت في أذهاننا صور بعض الأشخاص الذي ربطتنا بهم ذكريات سارة أو قاموا برعايتنا، لذلك حين نقابل أحدًا يشترك في بعض صفاته مع أولئك الذين أحببناهم؛ فإننا نشعر ناحيته بالانجذاب، وهذا الشعور يكون زائفًا في كثير من الأحيان؛ فليس بالضرورة أن يحمل الشخص الجديد كل صفات المحبوب القديم، بل ربما يتناقض معه أحيانًا، رغم اشتراكهما في بعض الصفات الظاهرة.

٢- قد يكون الانجذاب سريعًا وخاطفًا، ولكنه قام على أساس اكتشاف صفة هامة وعميقة في المحبوب، وهذه الصفة لها أهمية كبيرة لدى المحب، وهو يبحث عنها من زمن، وحين يجدها ينجذب إليها، وقد تكون شخصية المحبوب محققة لذلك التوقع، وقد لا تكون كذلك.

وهذه هي أهمية اللقاء الأول، والذي يحدث فيه ارتياح وقبول وألفة أو العكس بناءً على البرمجة العقلية السابقة، والصور الذهنية المخزونة في النفس، واللقاءات التالية إما أنها تؤكد هذا اللقاء الأول أو تعدله أو تلغيه.

الحبُّ والعناد:

حين يستحكم الحبُّ من شخص؛ فإنه يكون في غاية العناد، فلا يستطيع سماع نصيحة من أحد، ولا حتى سماع عقله؛ فهو يريد أن يعيش حالة الحبِّ في صفاء، حتى ولو كان مخدوعًا، فلذة الحبِّ لديه تفوق أي اعتبارات منطقية، وكلما زادت مواجهة هذا المحب كلما زاد إصراره، ولذلك من الأفضل أن يترك دون ضغوط ليرى بنفسه من خلال المعايشة الحقيقية (خطوبة مثلاً) أن في محبوبه عيوبًا لم يكن يدركها في حالة سكره وعناده، وبالتالي يستطيع هو تغيير رأيه بنفسه، أي أننا ننقل المسئولية إليه (أو إليها) حتى يفيق من سكرة الحبِّ، ويخرج من دائرة العناد.

وهذا الموقف نقابله كثيرًا لدى الشباب حيث يصر أحدهم على شخص معين بناءً على عاطفة حبٍّ قوية وجارفة، ولا يستطيع رؤية أي شيء آخر، وتفشل كلُّ المحاولات لإقناعه (أو إقناعها)، وكلما زادت محاولات الإقناع، كلما زاد العناد، ويصبح الأمر صراع إرادات، تختفي خلفه عيوب المحبوب، وتضعف بصيرة الحبيب إلى أقصى درجة.

والحلُّ الأمثل في مثل هذه الحالات هو الكف عن محاولات الإقناع، (وهذا لا يعني عدم إبداء النصيحة الخالصة للطرف المخدوع)، وترك الطرف المخدوع والمستلب (تحت وهم الحبِّ)، يخوض التجربة بنفسه (أو بنفسها)، من خلال إعلان الأهل قبولهم للأمر – رغم معرفتهم بآثاره السلبية – وهنا ومن هذه النقطة تبدأ الحقائق تتكشف رويدًا رويدًا أمام الطرفين في فترة التعارف أو مقدمات الخطوبة أو في

فترة الخطوبة ذاتها، وفي أغلب الأحوال يراجع الطرف المخدوع نفسه كليًا أو جزئيًا، وربما تراجع عن هذا الأمر.. وفي حالة عدم التراجع؛ فالأفضل أن يقبلوا هذا الأمر الواقع بعد إبداء النصيحة اللازمة، وليتحمل الطرف المصر على ذلك مسئوليته، وفي هذه الحالة سوف تكون هناك خسائر، ولكنها ستكون أقل بكثير من اتخاذ الأهل موقف عناد مقابل.

الاحتياج أساس مهم للعلاقة الزوجية:

والاحتياج هنا كلمة شاملة لكلِّ أنواع الاحتياج الجسدي والعاطفي والعقلي والاجتماعي والروحي، ولذلك فالذين لا يحتاجون لا ينجحون في زواجهم؛ فالأناني يفشل، والبخيل يفشل، والنرجسي يفشل، والمصلحي يفشل؛ لأنهم لا يشعرون بالاحتياج الدائم لطرف آخر، أو أن احتياجاتهم سطحية نفعية مؤقتة.

أصحاب التجارب السابقة:

هناك اعتقاد بأن صاحب التجربة السابقة في الزواج (أو صاحبتها) يكون أقرب للنجاح في علاقته الزوجية نظرًا لخبرته ودرايته، ولكن هذا غير صحيح؛ فالزواج علاقة ثنائية شديدة الخصوصية في كلِّ مرة، ونتائج الخبرة السابقة لا يصلح تطبيقها مع الشريك الحالي؛ لأن كل إنسان له احتياجاته الخاصة به، بل على العكس قد تكون الخبرة السابقة عائقًا في التواصل مع الشريك الحالي، حيث يعتقد صاحب الخبرة أن عوامل النجاح أو الفشل في التجربة السابقة يمكن تعميمها في العلاقة

الحالية، وهذا غير صحيح، وربما يحمل صاحب الخبرة مشاعر سلبية من الطرف السابق يسقطها على الطرف الحالي دون ذنب، وربما هذا يجعلنا نفهم حديث رسول الله ﷺ حين علم بزواج جابر بن عبد الله ﷺ من امرأة ثيب؛ فقال له: «**هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك**»؛ فالزوجان اللذان يبدآن حياتهما كصفحة بيضاء أقرب للتوافق من زوجين يحمل أحدهما أو كليهما ميراث سابق، ربما يعوق التوافق الزوجي، ويشوش على الموجات الجديدة.

وأخيرًا هذه كانت علامات على الطريق، يسترشد بها المقدمون على الزواج أو آبائهم وأمهاتهم أخذًا بالأسباب الممكنة، ولكن في النهاية نسأل الله التوفيق لشريك يرعى الله في شركيته، وينطبق عليه ما ورد على لسان الحسن ﷺ حين سأله رجل: إنَّ لي بنتًا؛ فمن ترى أن أزوِّجها له؟ قال: «**زوِّجها لمن يتقي الله؛ فإنْ أحبها أكرمها، وإنْ أبغضها لم يظلمها**».

❋ ❋ ❋